النزوع الغيبي

***



كان النزوع الغيبي أهم مزية تتصف بها نفسية العرب ، وقد يكون من الجائز اعتباره الخُلُق العربي الممتاز الذي يستأثر بالسيطرة على المشاعر وبتسيير الافعال . ولا غرابة في ذلك ، فبلاد العرب مهبط الاديان السماوية ، وكل ما عرفه تاريخهم من حركات انبعاث او تحول كان متسماً بالشعور الديني او منطوياً عليه ، حتى ان فكرة القومية ذاتها لا تكاد تستقر في ذهن العربي وهي مجردة من الدين .

على اننا ، فضلا عن هذا ، لا نعني بالنزوع الغيبي ما يتعلق بموقف الانسان تجاه دين من الاديان بالذات ، وانما نعني طراز التفكير ، واسلوب الاستجابة النفسية بوجه عام ، وذلك حاصل عند البشر حتى في ابعد احوالهم عن اي دين . فالنزوع الغيبي موقف ناشىء في الاصل من الاعتقاد بوجود قوى خفية قاهرة تسيّر كل أمر ، وهو متمثل عند الآخذين به ببعض صفات معينة كافتراض السمو والقدرة في كائن من الكائنات ، وعبادته وخشيته ، والانقياد المطلق لما يعزى اليه من اوامر ، والتعصب لهذه الاوامر وضد كل من يجوزها او يجادل فيها . ولا فرق في اعتبار هذا النزوع كاتجاه اصيل اذا اختلفت اغراضه ، فهو يستهدف تارة الهاً غير منظور ، وتارة كوكباً او صنماً من حجر ، كما انه لا يوفر من بين اهدافه الممكنة اي زعيم او بطل سياسي او صاحب نفوذ . فلئن كانت ظاهرة الاذعان الغيبي قد نشأت في حظيرة الدين ، فقد انتقلت بعد ذلك الى كافة مجالي الحياة ، واصبح لها شأن كبير في تصرفات الافراد والشعوب .

لقد اقترن النزوع الغيبي عند العرب في عهود خلت بافكار مثالية ، فتحوّل بفضلها الى طاقة قومية جبارة حققت ذاتها في الانتصارات الكاسحة ، وفي تشييد امبراطورية وحضارة . غير انه اليوم اعزل من اية فكرة مثالية ، ولقد انزوى حتى عن جوهر فكرة الدين ذاتها ، وهي المنبثقة عن القيم الروحية ، واتجه الى النقيض منها تماماً ، فلم يبق من الدين الا شعائر جوفاء ، وطقوس آلية ، اشد ما يستعان بها على تصنيف المجتمع ، واثارة النعرات الانانية فيه . لقد اصبح غرض النزوع الغيبي منحصراً في الاشخاص اي ان مفهومه بأوسع مداه غدا متركزاً في الخضوع والانقياد لكل ذي سلطان ، فاذا به الغذاء المتيد لصنوف جمة من الاقطاعية قديمة وحديثة ، واذا به معول للهدم والتقويض . فالعبودية مظهره الحديث ، وهي طاغية على الحياة الاجتماعية ، مستفحلة في طغيانها ، وتكاد تجهز على كل ما تبقّى من الاخلاق من معاني النبل والكرامة .

فالناس في تأثر شديد بالمظاهر المادية على اختلافها ، والتقدير مقصور عندهم على من يستحوذ على شعورهم بما يتخذ او يتفق له من وسائل مادية او معنوية للتأثير والسيطرة . وابرز الشواهد على ذلك ما يحاط به رجال الحكم من هالة تقديس يفنى معها الشيء الكثير من احترام الذات وملكة النقد والمحاكمة .

ومن آيات هذه العبودية تلك الأثرة العنيفة التي تسيطر على منابع النفوس ، بحيث انها أحالت علاقات الناس ملقاً واستثماراً ، مسكنة واستعباداً ، فقضت على روح المجتمع السليم الذي تنهض فيه هذه العلاقات على الاحترام الواعي للنوع الانساني . لقد أدى استعباد الذات الى امتهان كرامة الانسان ، والانحدار به الى مستوى الحشرات ، فغدا كائناً يعيش منفصلا عن مجتمعه ، لا يعنيه ولا يهمه من شؤون هذا المجتمع الا ما ينفع شخصه ، واذا به اما مستبدّ عبد لشهواته ، واما اسير عبد لسيده او مستغله .

ان النزوع الغيبي والعبودية قائمان في منتهى التحليل على عنصر القسر ، وهو منبث في كل مجتمع ، ولكنه بوجه الاجمال قسر مادي في هذه وروحي في ذاك . ولسوف تظل النفسية العربية مقودة بالعبودية ، ما لم تهتد الى المثالية المطلقة ، وتعتنقها بعد ان تنكرت لها ، فأنكرت ذاتها .

محمد وهبي

خليل مطران

بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي

استاذ الادب العربي بمعهد آسيا في نيويورك

قل بين أعـــلام الادب والشعر والفن من نتهيب الحديث عنهم تهيبنا الحديث عن المعلم الاول خليل مطران الذي ولدت الرومانسية والرمزية الحديثة في العربية على يديه قبل مطلع القرن العشرين ، فـــان المنن الضخمة التي اسداها هذا العلم الشامخ الى الشعر العربي الجديد نظماً ام نثراً وشرّف بها (مصر) وطنه المختار فوق تقديرنا ، ومن السهل الآن على بعض تلاميذه او على نفر من تلاميـــذ تلاميذه ان يجحدوا كل هذا ، ولكن التاريخ الادبي لن ينسى ذلك بل انه ليردده باعزاز .

تألق نجم خليل مطران في الربع الاخير من القرن الماضي تألقاً لم يعهد في شاب مثله من قبل – تألقاً جادت به عبقريته الموروثة وتعليمه الممتـاز وحوادث زمنه المثيرة من سياسية واجتماعية واقتصادية وسواها . ومثل هذا التألق المنقطع النظير لم تقترب منه ألمعية المعري ولا أبي تمـــام ولا المتنبي ولا ابن الرومي في صباهم عـلى جلالة خطرهم فيما بعد .

ومطران احد العباقرة الذين تشهد حياتهم بفضل المرأة ، فان هذا الشاعر اللبناني الفلسطيني الاصـل الذي شهد النور اول ما شاهده في يوليه من سنة الف وثمانمائة واثنتين وسبعين للميـلاد بمدينة بعلبك وقد زادها خلوداً ادبياً باحدى قصائده الرائعة – ان هذا الشاعر الفذ ليدين وراثياً بحاسته الشعرية الى جدته لامته، وبالرجاحة لامه ملكة الصباغ ، كما يدين لوالده عبده مطران ولآل مطران بالسخط على الظلم ومحاربة الجبابرة . وكثيراً ما سمعت شاعرنا يذكر امه بحنان واجلال بالغيرة وينوه بفضلها البارز في تكييف شخصيته ، وبهذا يشهد ايضاً الاديب المصري الاستاذ وديع فلسطين الذي لازم شاعرنا ملازمة شبه دائمة في اواخر عمره .

لقد تشرب مطران حب الحرية منذ صغره وتمكن منه هذا الحب الى نهاية اجله في صبيحة الاول من يوليه سنة الف وتسعمائة وتسع واربعين بالقاهرة ولئن تطبّع مطران بعـادة المراجعة والمعاودة « وبالتقية احياناً » وفاقاً لتعاليم امه الرزينة الصالحة وتبعاً لسلوكها الحكيم فان صاحب « مقتل بزرجمهر » و« نيرون » لم يتبدل مثقال ذرة – رغم وطأة الاحداث والعلل وأخراها النقرس الذي قضى به نحبه – ولم يتحول عن روح الطغيان والهام الشعوب العربية اسمى معاني الديمقراطية .

طلع مطران على الشعر العربي وخير ما ظهر فيه حينئذ التجديد الكلاسيكي الذي انجبه محمود سامي البـــارودي وشكيب ارسلان ، فأشرق بفنون من الشعر الاصيل نبهته اليها روحه الانسانية ومطالعاته العالمية الجمة وان تكن تلك المطالعات باللغة الفرنسية . ولازمه طول عمره حب الاطلاع الواسع هذا ، فانتظم المعرفة بآداب كثيرة من غربية وشرقية بله الادب العربي الصميم القديم والمعاصر ، وهكذا مجّ للادب الجديد من الوان الرحيق الشهي مـا اثر في جميع رواد الشعر الحديث عــلى اختلاف مشاربهم ، سواء اعترفوا بذلك ام لم يعترفوا ، وسواء اشعر وعيهم بذلك ام لم يشعر ، ولكن الناقد الادبي المستقل المطلع على (المجلة المصرية) وعلى كتابه (مرآة الايام) وعلى شعره المنظوم والمنثور المتعدد النماذج ، لا يمكنه الا الاقرار بفضل هذا المعلم المرشد الملهم الذي خلق آفاقـاً جديدة من التأمل والاحاسيس والتصوف، حتى استحق ان يدعى شاعر العربية الابتداعي الاول .

وما كان الشعر العربي في اي وقت فقيراً في المذهب الواقعي ولا في الحكم التجريبية والامثال الفلسفية ، فلم يجيء مطران ولا احد بعده ببدعة في هذا الباب، اللهم الا في اسلوب التناول الفني الطلق . وانما جاء مطران وتلاميذه بما هو أعظم – جاء مطران بمذهب الحرية الفنية الصحيحة التي تحترم شخصية الفنان واستقلال الفن عن الصناعة والبهارج والاناقة الزخرفيـة وكل ما يفرض العبودية على الفن والفنان من الفــاظ وقيود اتباعية لا يحتمها الجمال المطبوع وأصالة الفن . دعم مطران وحدة القصيدة وشخصية الفنان وعزز رسالته كما تدعم الديمقراطية حقوق الانسان ، وفتح له باب الحياة على مصراعيه كما افسح له آفاق الخيال ، وابرز له كل شيء في هـذا الوجود – صـغيراً كان ام كبيراً – كموضوع شعري خليق بعنايته واهل للتناول الفني اذا ما استطاع الشاعر ان يتجاوب معـــه ، وحبب اليه الموضوعات الانسانية بدل الاقتصار على العواطف الذاتيـــة فحسب ، واقنع شعراء مدرسته بأن على كل منهم رسالة مثالية لا بد له من أدائها ، وليست وظيفة الشاعر ان يكون نظاماً

لغوياً او بين المرتلين الانتهازيين ، بل عليه ان يكون بين زعماء الفكر ورسل الوجدان ودعاة الاصلاح واعلام الايمان لجيلهم ولما بعد جيلهم وان يجمع بين كل القيم التي تؤهل الزعامة الروحية والعقلية والتي تزاوج ما بين احلام الفنان وحكمة الفيلسوف الواقعي . بهذه التعاليم ومـا اليها انجب مطران وتلاميذه انجاباً ممتازاً شرف العربية كما أغنى الادب الانساني الصادق . ولئن كانت لمطران مناسبات شتى لقصائده العامـة تبعاً للاوضاع الاجتماعية والسياسية في مصر والشرق العربي ، الا ان جميع هذا الشعر زاخر بكل العناصر الرفيعة التي يتميز بها شعره كيفما كان عنوانه وموضوعه ومناسبه .

وعاطفة الحب التي ألهبت فؤاد مطران في صباه ثم القته في لجة الحزن العميق بقية حياته ، هي دعامة الزاوية في بنيان شعره الوجداني ، وهي التي اسبغت الحنـــان على اخوانياته العديدة من ذكريات وتقدير ورثاء التي حفل بها ديوانه الرائع.

ونماذج الخيال الشعري المدهش في قصائده لاعظم من ان تحصر ، ومن أقدمها قصيدته « فنجان قهوة » التي قال الاستاذ عيسى خليل صباغ عن خياله فيها انه تجاوز فيها غاية ما يبلغـه قاريء البخت في فنجان القهوة !

وخليل مطران الشاب الذي رمى اعوان عبد الحميد سريره بالرصاص والذي راح يتنقل من قطر الى قطر فراراً من وجه الظلم ، والذي احتضنته مصر وتبنته عمراً طويلا ، هو خليـل مطران الكهل والشيخ الذي نظم الروائع منافحة عن الحرية والديمقراطية والكرامة الانسانيـة ، فغذى بها الشعور الوطني جيلا بعد جيل .

وخليل مطران الاديب اللغوي ، تلميذ اليازجيين الشيخ ناصيف والشيخ ابراهيم وتلميذ المعيـة ، هو الذي خلق العديد من الصيغ والتراكيب البيانية الحرة التي صدمت التقاليد اولا ولكن سرعان ما مكنت للعربيـة وأدبائها في حرية التصرف البياني الجميل وفاقاً لحاجات العصر . وخليل مطران ، مترجم شكسبير ، ومصير الفن ، ومدير الاوبرا بالقاهرة ، والاديب الكريم النفس، هو افضل مثل يضرب الى جانب المعري وابي تمام في البر بالادباء مريدين وتلاميذ بل وخصوماً على السواء في روح فريدة من المحبة والايثار والانصاف والتشجيع لمستحقيه.

وخليل مطران الاقتصادي المجرب الواعي، هو ذلك المعلم الفاضل الحكيم الذي خدم مصر خدمات جليلة في النقابـــة الزراعية العامة وأسدى اليها من آثاره الادبيـة الاقتصادية ما لا يزال موضع الاعجاب فكراً وأسلوباً وغاية .

هذه لمحات قليلة من شخصية هـذا الشاعر الشامخ المتعدد الجوانب نعرضها في ذكرى وفاته ، ومثـله لا يعيش في شعره فحسب بل في اشعار الكثيرين من تلاميذه كذلك في انحـــاء العالم العربي ، ويعيش في النهضة الشعرية المطردة الصعود كيفما كانت سماتها والوانهـــا . وخير ترحم عليه دراســـة آثاره الفخمة واستيحاؤها .

ولا يفوتنا ان نذكر في ختام هذا الحديث المجمل ان مطران الصحفي النزيه الذي خدم القلم والقومية العربية والروح الوطنية لاجدر الادباء باحياء ذكراه السنوية من محطـــات الاذاعة العربية ، فالاذاعة اللاسلكية بنت الصحـــافة . ومن محطات الاذاعة هذه يجـــدر ان يجلجل صوت الاحرار بقول مطران الرائد في العهد البائد :

شردوا اخيارها بحرا وبرا   واقتلوا احرارها حرا فحرا
انما الصالح يبقى صالحاً   آخر الدهر ، ويبقى الشر شرا
كسروا الاقلام ، هل تكسيرها   يمنع الأيدي ان تنقش صخرا ؟
قطعوا الايدي ، هل تقطيعها   يمنع الاعين ان تنظر شزرا ؟
اطفئوا الاعين ، هل اطفاؤها   يمنع الانفاس ان تصعد زفرا ؟
اخمدوا الانفاس ! هذا جهدكم   وبه منجاتنا منكم . . . فشكرا !

وبقوله :

انا لا اخاف ولا أرجي   فرسي موهبة ومرجي
فاذا نبا بي بطن بر   فالمطية بطن لـج
لاقـول غير الحق لي   قول ، وهذا النهج نهجي
الوعد والايعاد مـا   كانا لدي طريق فلج (١) !

وبقوله في مقتل بزرجمهر على لسان ابنته السافرة التي تساءل رسول كسرى متعجباً عن سبب سفورها :

انظر ، وقد قتل الحكيم فهل ترى   الا رسوما حوله وظلالا ؟
ما كانت الحسنا ترفع سترها   لو ان في هذي الجموع رجالا !

كان ذلك منذ نصف قرن ، ولكن مطران بقي هو هـو شاعر الحرية الجريء الذي قال في ملحمته « نيرون » بعـــد ذلـك بسنتين .

كل قوم خالقو (نيرونهم)   قيصر قيل له ام قيل (كسرى) !

قد يجد مطران لابتداعه المنوع في جميع ضروب الشعر – وليس اهونها القصص – ولايحائه بما تركه لغيره ، لا عن عجز

– البقية في صفحة ٧٣ –

١) فلج : ظفر

نفوس قلقة في الطبيعة

في العاصفة

بقلم الآنسة ثريا ملحص

*

كان صامتاً ، كره الحروف والكلمات ، كره الاصوات والثرثرات ، وعاش بعيداً عن الناس ، لا يحبهم ولا يرجو منهم خيراً ولا منهما ..

ليته لا ينتمي الى البشر ، ليته يخلق لنفسه عالماً افضل من هذا العالم الذي يضجّ بالناس ، ويعجّ بلغوهم

ليته يخلق لغة افضل من لغة هؤلاء الاقزام ، ليته يخلق لغة الغبطة الروحية والنشوة الالهية ، لغة الاحساس بالجمال هذا ما اراد ، وهذا ما تمنّى .

***

ما اسعد الانسان الذي يقف متأملا غائباً عن الوجود ، تتمطّى كل انملة من انامله عواميد ضخمة ، تستمد من القوة الالهية عبقرية فذة ، قلما يدركها الانسان ، تنزع من صدرها جمالا رائعاً يتسرب الى عيني الفنان !

***

سكنت العبقرية في انامل الفنان ، ورقد الجمال في عينيه . هذا كل ماتمناه ، وكل ما كان ...

اما جسده فقد سكبته الآلهة في قالب يبدو للعين كأنه شبه انسان ، كأنه كومة من الطين ، عافها ازميل النحات ، فقذفها غاضباً ، ساخطاً دون انتهاء ! وتدحرج التمثال من بين يديه عديم الهيئة ، دون شكل ، دون صقل ..

ووقف التمثال الحي نافضاً عن قدميه الغبار والرمال ، ونضنض انامله نحو السماء مهدداً ، ومشى وحيداً في الدروب الوعرة ، وتفتقت من تحته دروب ، وسالت كلها تحتّ اقدامه دون لفتة ولا التواء .. وجاب الشاطىء من فوق ثم الى تحت ، ومن تحت ، ثم الى فوق ، يبحث عن شيء يمسه ، يبحث بصبر غريب ، وقلق ظاهر على كل حفنة من محياه ، كأنه عالم من العلماء .. ويبحث باحساس فائق ، احساس الفنان المبدع ، وراح يركع على التراب ، ويكبّ على ذراته ، يلمس الصخر ، وينزع طبقاته .

وطال به الطواف ، طال به الطواف من جزيرة الى جزيرة ، ومن شاطىء الى شاطىء ، ومن بلد الى بلد ، يبحث عن تكوين الارض والسماء وما بينهما وماحولهما من الفضاء الرحراح . وقف ينظر الى الجبال والانهار ، الى البحار والسهول ، الى الشمس والغيوم ، الى الشروق والغروب ، ويندفع اندفاع الصاعقة ، يحوي بين جانحيه اكتشافاته ورؤاه ، يسجلها بريشته العبقرية ، وفي مرسمه المتواضع .

***

احب الفنان الطبيعة حباً هائلا ، احبّ فيها الارض وما تخرجه من نبات وجماد .. احب البحر ومافيه من امواج والوان .. اما العاصفة فقد احبها في السماء وفي الارض ، احبها فهدأ قلبه الصارخ ، واسكنها في سوائه ، فهدأت العاصفة هناك ، تحدثه دون ان تتجلى امامه .. وعندما انطلقت هزات ، تكلمت بلغة العبقرية ، فانفتحت حواس الفنان مصغية الى الثورة العنيفة ، مطمئنة الى ضالتها الشرود .

***

احب عاصفة البحر ، ونزل الى البحر بجسده ، يلمس منه كل موجة ، يرقب امتدادها وانجزارها الصاخّ ، تارة في المد واخرى في الجزر ..

وتهف على جانبي المركب ، تلمس جسده المرتعش ، فيزداد ارتعاشه غبطة وفرحة ..

ها هي الغيوم تتلاحق ، تارة كالسديم ، واخرى كالجون ..

وها هو الرعد في هزيمه ، والبرق في ولوفه ، اما الشاعر الفنان فهو رابض في قاع المركب ، يتأمل في ملاحظاته ، كانه يريد ان يصف المشهد بقصيدة .. يدير دفة المركب ، ويعود الى الشاطىء دون ان ينفض رشات الماء عن ثوبه ، ويمشي جزلا الى مرسمه ، ينثر البركة فيه ، ويلوّن ما شاهد على لوحة ، بلغة

الخطوط والالوان

***

اما عاصفة السماء، فكانت تهزه هزاً، فيغيب، وتحرك اعصابه، فيستمد منها الخلود، وتشخص عيناه في السماء، وتعلقان في الشرر المدفدف من اصطدام الغيوم، وينسى انه كومة لفظها الخالق دون صقل، دون انتهاء، ويرفع يديه مرمرماً آيات الخالق، طالباً منه ان ينقشع امامه لانه مثيله، ومثيل كل فنان مبدع ..

***

كان الفنان في زيارة صديق له، وقلما يزور، وهجمت العاصفة، وزعق الرعد، والتمع البرق، واسرع الفنان الى الباب وفتحه على مصراعيه منتصراً، كأنه كان يتمنى ما رأى .. رأى العاصفة في اوجها تدور، فصرخ بفرح وسرور، صرخ مهللا: «انظر .. انظر يا صديقي .. أليس هذا المنظر بديعاً؟ أليس هذا اليوم رائعاً؟ أليس..؟ تأمل .. انظر .. هل ترى؟ هل تسمع؟.. خذ ورقة .. خذ يا صديقي .. اكتب .. ارسم .. آه ما اسعدني! ما اسعدني في هذه الزيارة .. ابت العاصفة الان ترافقني!.. ما اجلها! ما اروعها! هي التي وهبتني قوة الهية خارقة .. ما اجل العاصفة! ..»

وقمرت عيناه بالوحي، واخذ ورقة يسجل عليها انفعالاته النفسية، واكتشافاته العميقة، ومشى ..

مشى الى القرية لكي يدرس حالاتها ويسجل مناظرها، لكن ريشته عصت، وابت ان تطيعه، ورفضت كل شيء حتى تغمس رأسها في قلب العاصفة، وعاد الى الشاطىء يدرس البحر في جميع حالاته وكم تمنى لو كان سمكة من هذه السمكات العائمة، او لؤلؤة في قاع البحر مــن اللآلىء والمرجان الغائرة، وجلس على الرمال يسجل الطبيعة في اعنف مظاهرها واوحشها، في العواصف التي اخمدت عواصف روحه، وطمأنت قلق نفسه، فوجد فيها عزاء جميلا، ومعنى رائعاً للوجود .. وكانت ريشته تركض ركضاً، طيعة لدنة بين انامله، لانها لانت للعواصف، كما لان قلبه لها.

***

هذا هو الفنان الذي لم يستطع ان يعبر عن نفسه بالحروف، لانه كره الحروف والكلمات والقواعد والصرف هذا هو الناسك العابد الذي حبك في لوحاته الرائعة مشاعره واحاسيسه، وحركها بالوان توف، واوتار تعزف.

حقا كان «تيرنر» فنانا في ذروة الفن النقي، يدرك الجمال، ومدى تأثيره في النفوس الرقيقة. وبعد ان تعب من الطبيعة ووجوهها، اراد ان يبحث في ماوراء الطبيعة، وتناول المنظور، ونسجه باحلامه الخيالية المترعة، وحطم التقاليد ورماها في مهاوي العاصفة، فالتهمتها مصفرة، ومشى وهو يتمتم: «.. ان «جون رسكن» يعرف كثيرا .. نعم كثيرا كثيرا عن رسومي، يعرف اكثر مني .. انه يشير الى معان لم تخطر ببالي! ويضع في راسي اشياءً لا اعرفها». ان رسكن انسان احب الجمال اينما كان، احبه في ذروته، لذلك احب ما خلقته ريشة تيرنر .. لا باس ان ينقده رسكن لان رسكن حساس بطبعه، شاعر كبير لم يتطفل على الفنون كعادة النقاد الثرثارين .. انه ناقد نقي، لانه شاعر حساس.

وظل الفنان تيرنر وحيداً، لم ينفتح قلبه الا على العاصفة، ولم تهدأ روحه القلقة الا في العاصفة، وظلت العاصفة رفيقته الى الابد، يهدهد رأسه على رأسها، فتنزاح عنه الهموم والتعب ..

***

ابتعد عن الناس، لانه كره الناس، انعزل عن الناس، لانه اراد ان يحيا لنفسه وللطبيعة في اعنف حالاتها، أحبها حباً جنونياً، فكان حقاً شاعر العاصفة وفنانها.

***

مرض تيرنر، ولم يؤمن بالموت، وكيف يؤمن من في قلبه عواصف اقوى من عواصف الموت؟ ..

وبالرغم من ضعفه، دفع كرسيه الى النافذة ليرى الحقول، ويمرغ ناظريه بالزهور، فاغرورقت عيناه بـدموع باردة، وكفت على خده، وهمست: «ودع الطبيعة حبيبتك، رفيقة طفولتك وصباك وشيخوختك .. ارفع عينيك بالنشوة الصوفية. خذ ورقة صغيرة، سجل عليها كما كنت تسجل .. سجل عليها الجمال، جمال الحبيبة، واقتنص ألوان الوداع.

سجل يا تيرنر.. سجل .. انك قوي، قوي .. جبار ..» رفع تيرنر أنامله، فلم ترتفع، وحدق في الطبيعة، فانطفأ النور في عينيه .. دارت به العاصفة، فانسدلت اهدابه على اروع لوحة، وانغلقت اذناه على ابدع نغمة ..

وظلت العاصفة الاخيرة صامتة، مدفونة في بؤبؤيه، ونزلت معه لوحة رائعة، نزلت معه الى القبر لترد عنه الفناء ..

ثريا ملحس

عندما يحب الفقراء

☆

وجرحتَ احساسي
يا ايها المتحجرُ ، القاسي !
بحديثكَ الآسي
عن عقديَ الماسي
عقدي المزيفِ
ايها القاسي !
ونفذتَ كالفأر المريض ، الى
نفسي تُعريها
كنسناس
لا شيء ، غير صَبيةٍ ، فُجعتْ
بكَ يا جبان
بعقدها الماسي
وحجبتُ عاري عنكَ ، يا حلمي
عن أختيَ الصُغرى
عن الناس
وكتمتُ انفاسي
خوفاً ، من الجيران ، انفاسي
فالعقد من دولاب ، سيدتي
سرقتهُ أمي
ايها القاسي

لعبد الوهاب البياتي

•

بغداد



تمهيد

بلقبني بعض شيوخ اللغة المقدسين المذاهب القديمة بلقب «داعية الثنائية» . فانا راض بهـذا اللقب ، مهما كانت غاية الملقبين ، فاني بالحقيقة من الدعاة الى هذه النظرية ، ومن الساعين في اثبات صوابيتها. وقد اشتهر ذلك عند القاصي والداني بما اذعته من المنشورات ، في ذا الشأن . بيد ان ما يطيب لي المفاخرة به ، فضلا عن هذا ، هو اني لست آرياً ، او بربرياً ، او فرنجياً ، او بدوياً ، بل اني ساميّ عراقيّ قح ، من صميم العراق ، قديمه وحديثه ، عراق مهد الساميين ومنشأ تمدنهم ، عراق سرجون وحمورابي والاكديين ، عـــراق نبوخذنصر والبابليين ، عراق سنحاريب والاشوريـــين ، عراق الرشيد والمأمون والعباسيين ، واليوم عراق النهضة الوطنيـة العربية المباركة . ثم اني ناشد الحقيقة العلمية بالتخصص لمقارنة ألسنتنا السامية ، قصد خدمـة لغتي العربية العزيزة ، ولا سيما في حقل المعجمية .

بيد اني ، اذ كنت من ابناء القرن العشرين ، وفي المباءة العصرية — ومعلومك ان المرء ابن عصره ، ووليد بيئتـه — كان من الطبيعي ان تكون عقليتي ، وثقافتي ، ومنهجـــي في التقصي في المعجميات العربية — السامية ، ليس على انماط القرون الوسطى العتيقة ، والاساليب المتحجرة ، بل سيراً مع الرقي العصري — وهو احدى مراحل رقي البشرية — وخاصة مع التقدم العلمي اللغوي ، وبموجب النظريات المستحدثة ، والمقررة بين جهابذة العلوم اللغوية والالسنية في ازمنتنا الحالية . ومن جملة ذلك « المقارنة الالسنية السامية ، والنظرية الثنائية » مع الاعتماد على اساس الاشتقاق الطبيعي المعقول ، المبني على التطور ، والتفرع بالارتقاء من « الاقل الى الاكثر ، ومن الانقص الى الاكمل » ، وبالتدرج من « الرساس الثنائية الى الاصول الثـــلاثية » ، وتوسعاتها الرباعية والخماسية ، ومع استيعاب جمهرة المواد المعجمية ، قدر المستطاع ، ونظائرهـــا في الاخوات السامية ، وحسب طواعيتها للاستقصاء والاستقراء ، وهي على الحالة التي وصلت بها الينا على ايدي المعجميين الاقدمين ، ومـــا اتيح لهم من فرص ، ومـــا تهيأ لهم من وسائل الجمع والتدوين « الساذجة البدائية » التي كانت مألوفة في ايامهم ، ولسبب معايبهـــا وشوائبها ، لم تعـــد ملائمة لمقتضيات العصر ، وثقافة ابنائه ، ومـــا بلغه علم اللغات عموماً ، وعلم الساميات خصوصاً ، من الارتقاء في سلم التكامل ، ممـــا لم يبق للعربية منتدح للاستغناء عنه ، والتخلص من الاذعان لسلطانه ، والسير في ركاب اربابه .

واذا كان من المناهج التي يدعو اليها ائمة العلوم العصرية ان تسرد الامثال بوفرة وموازنة وتمحيص مما يساعد على استنباط المبادىء وتأييد النظريات ، فقد كان هذا الاسلوب اسلوبي في ما نشرته وانشره في ذا المجال . وها انا ذا باسط في ذا المقال طائفة من النماذج ، طبقـــاً لطريقة بحث المواد في معجمي « الثنائي » ، وذلـــك زيادة في تعزيز نظرية الثنـــائية ، وتبيانـــاً لجزيل فضلهـــا ، وفائق تفوقهـــا على نظرية الثلاثية القديمة ، وعميم فائدتها للمعجمية العربية .

واذ كانت عامـــة هذه المنشورات اختصاصية ، كان من البديهي وضعهـــا لاهل التخصص مـــن اللغـــويين العصريين ، اي اصحاب الصبر والجلد — وقليل ما هم — الذين حصروا همهم في المعجميـــات والمقـــارنة الالسنية السامية ، المفروض وقوفهم على قواعدياتها واسرارهـــا وخصائصها ، ولا للمتشبثين بقديم المذاهب التي ما زالت تكرر على علاتها منذ الف سنة ، كانها آيات نازلات من العلاء . مع ان الذين ذهبوا اليها بشر مثلنا . وقـــد وضعوها حسب العقلية السائدة في بيئاتهم . ونسبة الى درجة العلوم ، ونوعية الاساليب المرعية في عصرهم . والعلوم جميعها ، دون استثناء العلوم اللغوية ، تتطور كتطور البشر . فلا يمكن ان نفكر ، نحن ابناء القرن العشرين ، كما كان يفكر اهل القرن العاشر وما قبله ، او كالضاربين الخيم في البوادي . ولذا فالفريـق الذي اعتمد عليه في ذا الشأن ، موجهاً ابحاثي خصيصاً اليه ، هو فريق

اساتذة وخريجي الجامعات العصرية ، في مصر ولبنان وسورية والعراق ، المتهيئة عقولهم ، والمتفتحة قرائحهم الوقادة لمثل هذه المواضيع والمناهج العصرية . فلهم اصنف ، لافتراضي انهم من المدركين والمقدرين والموالين . ومنهم اتوقع المثابرة على المجاهدة في سبيل تجديد الدراسات اللغوية والالسنيـــة ، المقصود من ورائها خدمة لغتنا الوطنية ، وتعهد معجميتها بالتنظيم ، والتنسيق المعقول ، المقبول . اما غيرهم ، فمع الاحـــترام للاشخاص والمقامات ، ادعهم في راحة واطمئنان ، «وهم بما لديهم فرحون».

ا : عسل

عسَل الطعـــام : عمله وخلطه . و ـ من طعامه : ذاقه . و ـ القوم : زودهم العسل واطعمهم اياه . و ـ فلاناً : طيب الثناء عليه . و ـ الله فلاناً الى الناس : حببه اليهم . و ـ الذئب أو الفرس هز رأسه واضطرب في عدو . و ـ الرمح : اشتد اهتزازه . وعسَل الطريق (في الطريق) الثعلب : سار . و ـ الدليل اسرع في المفازة . وكذب عليك العسل : اسرع في المشي . و ـ الماء : اضطرب بتحريك الريح . عسّل : صار كالعسل . و ـ خلط بالعسل . و ـ النحل : عملت العسل . استعسَل القوم : استوهبوا العسل . والعاسل : مشتار العسل اي مستخرجه من من خلاياه . و ـ الذئب . و ـ ذو العمل الصالح . ورمح عاسِل يهتز ليناً . ومكان عاسِل : فيه عسل . والعسّالة : النحلة . و ـ خليتها . والعسل : الناقة السريعة . عسْلا لك : تعساً . والعسل : الرجل الشديد الضرب .

العسَل : لعاب النحل . و ـ حباب الماء اذا جرى . والعسُول : الشديد الاهتزاز . العسِيل : مكنسة العطار يجمع بها العطر . و ـ الريشة التي تقلع بها الغالية ، اي اخلاط الطيب . والعَنْسل : الناقة السريعة (النون زائدة) .

هذا مثل من مئات الامثال التي يتجلى فيها الاضطراب والتنافر بين فحاوي الالفاظ العربية . اذ ان المرء الباحث يسائل نفسه بقوله : اية علاقة معنوية بين العسل ، هذه المادة الحلوة المذاق ، وما يتفرع من اسم العسل مـــن الصيغ الارتجالية ، والمداليل المجازية ، وبين الذئب واسراعه في السير ، واهتزاز الرمح ، واضطراب الماء ، والكذب والوجوب ، والتعس ؟ أو اية لحمة ومناسبة بين الثناء على الصلاح والتحبب ، وبين خلية النحل ، ومكنسة العطار ، والريشة المستخدمة لقلع الغالية ؟ هذه الحالة هي حالة المعجمية الثلاثية . وقد كانت وما زالت على هذا المنوال ، منذ اجيال . فان استغربتها ، ايها المطالـــع ، ونفرت منها نفسك ـ كما نفرت منها نفسي قديماً ، وانا عـــلى مقاعد المدارس ـ وان شق عليك هذا النقصان ، وهذا الخلل والعيب ، فراجع في شأنه اللغويين والمعجميين ، انصار الثلاثية المحافظين عليها محافظتهم عـلى المقدسات بسبيل التقليد ، فهم المسؤولون عن ذلك ، ومن واجبهم ان يحلوا لك هذا المشكل ، وان يزيلوا هذه المعايب ، ان استطاعوا ، بثلاثيتهم ، الى ذلك سبيلا . اما نحن « الثنائيين » ، الذين ينظر الينا حضرات هؤلاء الثلاثيين شزراً وحنقاً ، لمخالفتنا ما وجدوا عليه آباءهم وسلفاءهم ، فنقول لك : كن مطمئناً . كان هـــذا التنافر ، او التناقض الملازم المعجمية الحـالية لا وجود له الا في الظاهر ، ومنشؤه الفرضية الواهية ، فرضية بدء الاشتقاق من الثلاثية . ودونك كيفية ازالة هذا الخلل بالثنائية .

ان للفظة «عسل» ثلاثة ضروب من المعاني .

اولا : الفحاوي الارتجالية من كلمة « العسَل» ، اي هـذه المادة السائلة الغليظة ، الحلوة المذاق ، التي تعدهـا النحل من عصارة الزهور ، وتقذفها في نخاريب خلاياها ، وقد سمى بعض المعاجم العربية «العسَل لعاب النحل» . ومن باب التشبيه ، اطلق على حباب الماء اذا جرى . والعسل ، من هـذا القبيل ، ليس باسم مشتق من اصل فعلي ، بل الافعال مشتقة ارتجالا من هذا اسم العين . ولمعانيها علاقة بحلاوة العسل .

ثانيا : هنـاك المداليل المجازية الناشئة عن حلاوة العسل ، كقولك : عسَلَ فلانا طيب الثناء عليه ، والعاسِل : ذو العمل الصالح ، وعسل الله فلانا الى الناس : حببه اليهم .

ثالثاً : «عسَل» فعل اشتقاقي دال على الاهتزاز والسرعة ، وعلى الذئب وسرعتـه ، وعلى التعس ، وعلى مكنسة العطار ، وهنا ينشأ الاضطراب . ولما رأى ابن فارس ، صاحب كتاب المقاييس هذه الحالة السيئة ، رد الفعل الى اصلين ؛ اولهما يدل على الحلاوة المتصف بها العسل ، وما يتفرع من ذلك ، وثانيهما : على الاهتزاز والاضطراب والاسراع ، بيد ان هـذا لا يزيل التباين والتنافر المعنوي .

اما نحن ، فبفضل الثنائية ، نقول ونثبت ان «اصل الكلمة واحد ، وان لا تباين ولا تنافر في مداليلها» ودونك البرهنة .

ان «عسل» المعدود ثلاثياً ، في نظر الثلاثيين ، ليس «بثلاثي مجرد» بل هو ثنائي متوسع او مزيد» باضافة اللام تذييلا .

والرس الثنائي الخفيف الصادر عنه «عسل» هو «عس» المكرر في «عَسْعَسَ» ومقلوبه «سعسع» اي تكرار «سع» ومن معاني هذا الاخير «سَعْسعَ» الراعي بالمعزى: دعاها بقوله «سَعْ سع» حتى تقبل اليه. كأني به يقول لها: تحركي، امشي، اسعي، اقبلي الي. و«سعسع» الشيخ: اضطرب جسمه، اي تحرك بشدة. و«السُعْسُع» الذئب لمشيه بسرعة، وسعسع الليل: ادبر وولى، وفيه سرعة في الحركة، ومن الثنائي الخفيف «سع» تفرع «سعى» بعد حركة ثانية. ومدلول «سعى»: مشى وعدا، وفي العدو حركة وسرعة، وتفرع «سع» ايضا في «ساع» الممدود الاول ومن مداليله: ساعت الابل: تركت تسرح دون راع. وكذا الحال في «عسعس» وهو ثنائي خفيف مكرر. ومن دلالاته: «عسعس» الشيء: حركه، و«عسعس» الليل: ادبر. والذئب: طاف في الليل. و«تعسْعس» الذئب: طلب الصيد ليـلا. و«العسعس والعسعاس» الذئب. لطوافه في الليل طلبا للصيد، ومن «عس» الثنائي الخفيف تفرع بالتثقيل او التضعيف «عسّ» ومدلوله: طاف بالليل. و ـ الناقـة: رعت، اي طافت في المرعى وحدها. و«العسّاس»: الذئب. لانه يعس اي يطوف بالليل. وكذلك، قد توسع «عس» بمدّ اوله فجاء منه «عاس» طاف ليلا، و ـ الذئب: في طلب شيء أيا كان بالليل.

لنتخط الآن الى «عسل»، وهو، كما قلنا، مزيد في الثنائي الخفيف «عس» وفيه تطورت مداليل الحركة، والاهتزاز، والسير، والطواف.

اولا: «عسل»، المشتق اشتقاقاً فعليا، قد صدر من «عس» فجاءت معـــانيه كما يلي: عسل الذئب او الفرس: هز رأسه واضطرب في عدو. و ـ الماء: اضطرب. و ـ الدليل: اسرع. و ـ الرمح: اشتد اهتزازه، والعاسل: الذئب. و ـ الرمح المهتز. والعسل: الرجل الشديد الضرب. وفي الضرب حركة عنيفة. والعسيل: مكنسة العطار. و ـ الريشة المستعملة لقلع الغالية. وفي الكنس والقلع حركة. يقال: عسْلا لك، اي تعساً وبعداً وفي الابعاد حركة شديدة. وكذا «العسل» الذي سمي في الثلاثية «اسم عين» اي غير مشتق من اصل فعلي، فهو بالحقيقة مشتق ايضاً في نظر الثنائية، من فعل غير متصرف او جامد، وهو الثنائي «عس» المتضمن فعل «الحركة» اذ ما العسل سوى مادة سائلة، وحلوة المذاق. فصنعة السيلان، او فعل التحرك، يدل عليها الرس الثنائي الخفيف «عس» ومقلوبه «سع» ومكرراهما «عسعس» و«سعسع» والمتفرعـات المختلفة «عاس» وسعى، وساع» وفي كلها معنى الحركة الاولى، وهذا المدلول داخل في الصفة الاولى «للعسل» وهي «السيلان» اذ هو مادة سائلة. ومن خاصيته الثانية، وهي الحـــلاوة، نشأت الفحاوي الارتجالية الدالة على هذه المزية، حقيقة ومجازاً.

***

فانتم ترون، يا نشاد الحقيقة، وانصار اللغة، ان الثنائية، مهما طعن فيها خصومها ومناهضوها، تقف راسخة غير متزعزعة وتظهر بجلاء من انجع الوسائل لاصلاح المعجمية العربية بتنظيمها تنظيما منطقياً، معقولا، مقبولا. ومن مطاوي البحث يتجلى لكل باحث نزيه ان الاشتقاق، على مثال الشجرة، متوقف على البزر المزروع، كحبة الخردل التي تلقى في الارض، وبالتدريج اي بالتوسع والتفرع، تصبح شجرة عظيمة تتآوى في اغصانها طيور السماء، وان التوسع ليس بقائم على البـــدء بالكثرة والاطالة، يعقبها في النهاية الاختزال، كما ان الشجرة لا تشرع في ان تكون دوحة باسقة. ويوما بعـــد يوم تتقلص فتصغر، فتتحول، خلافا للطبيعة، من دوحـة الى شجيرة، ثم الى بجلة، ثم الى بزرة. ولهذا لا يسوغ القول بان بدء الاشتقاق جرى بالثلاثيات، مثل «قطع، زلق، كدح، بتر، زحل.» ثم تقدم او توسع بالاختزال. فاصبحت هذه الافعال الثلاثية «ثنائيات» اي «قط، زل، كد، بت، زح.» فالطبيعة تنفر من هذا الاسلوب الخيالي المتعسف. لان الحقيقة هي ان «قط، وزل، وكد، وبت، وزح» واشباهها هي الرساس الاولية، وان «قطع، وزلق، وكدح، وبتر، وزحل. و«امثالها، قد تفرعت منها بالزيادة.» [1] وبعبارة اخرى «ان الثنائية هي الاصل، والثلاثية فرع.» وهذا الناموس، ناموس التفرع، موجود في الطبيعة عينها، وفي البشر انفسهم. فان الانسان لا يولد كهلا، فيتطور ويتناقص الى ان يصبح طفلا، بل يولد طفلا، فينمو وينشو مترعرعاً الى ان يصل الى كمال الرجولة.

اما الاختزال الوارد في بعض الاصول والالفاظ، فهو

---

[1] راجع مقالة للاستاذ المغربي الجليل عنوانها «بعض اسرار اللغة العربية» منشورة في الجزء ٢ من المجلد ٢٨ من مجلة المجمع العلمي العربي، بدمشق، ص ١٨١ – ١٨٦. وانظر هل من المعقول ان يجري الاشتقاق الطبيعي بالاختزال ام بالتوسع والتفرع بزيادة الحروف، بدءا من الدس الثنائي.

احمد ابو سعد في قصائد دافئة

بقلم الدكتور علي سعد
من اسرة الجبل الملهم



قد يكون الظرف الذي تظهر فيه هذه المجموعة من شعر احمد ابو سعد بعيداً عن الوقت المناسب لظهورها، فان معظم قصائدها وضعت منذ اكثر من ثماني سنوات. فضلا عن انها تقترب بطابعها وروحها من تيار شعري استنفد اغراضه او كاد، وخبت جذوته مع ايام الحرب الاخيرة بعد ان ترك ابطاله ساحة الشعر ، اما عجزاً او سأماً، او كفراً بالقيم التي قدموها يوماً الى الناس كنهاية النهايات في الخلق الشعري

لذا كان اقرب الى المنطق ان يظهر هـذا الديوان في تلك الحقبة الذهبية التي كان ينتشي فيها لبنان لقصيدة موفقة او كلمة حلوة تقال ، والتي كان يعد فيها تألق شاعر مبـدع ، او مولد ديوان جديد من الاحداث الهامة في حياة الشعب .

غير انه قدر لهذا الشعر ان يدفن زمناً في فكر صاحبه وفي اوراقه ، والا يظهر الا بعد اوانه .

ولكن هل للشعر اوان ؟ وهل يمكن ان يستمد اهميته من الظروف الزمانية والمكانية التي رافقت مولده ، فيفقدها بفقدان هذه الظروف ؟

اننا نعيذ الشعر من هذه النظرة . فالشعر ، ككل حدث فني ، يفترض في وجوده بذور البقاء . انه من طبيعة لا آنية . فهو قد يرتكز في مادته وفي موحياته على مناسبات الواقع الذي كان يعيش فيه الشاعر . وهو قـد يتأثر في صيغته بالاساليب الفكرية او الازياء الشعرية التي عايشت ايام انبثاقـه . ولكن الشعر ، كالمعدن الثمين ، يظل محتفظاً بقيمته الذاتية اياً كان نوع النقوش او لون المياسم المصكوكة على وجهيه . انـه يظل على قدرته في اثارة الفرح او الحلم او الدهشة مهما بلغ به القدم وبعدت الشقة بين قرائه والجو الذي اطل منه .

واحمد ابو سعد، وهو احد شعراء الجيل الفتي الذين اصبحوا يرون انفسهم مسؤولين عن واجب تجاوز المذهب الوجـداني الفردي الذي انطلقوا منه ، للنفاذ الى الوان جديدة من الشعر تلتقي مع التيارات التي يميد بها مجتمعنا الحالي ، احمد ابو سعد يبدو منساقاً لعامل الولاء لماضيه بتسليمه شعره هذا للناشر ، على زهده بنشر قصائده في حينها، ورغم تحوله عن الايمان بالنهج الشعري الذي كان يتبعه حين وضع قصائد هذا الديوان .

ولعل هذا التلفت الى صيغ جديدة في الشعر هو نفسه، الذي حفزه لنشر شعره السابق . فكأني به ، في هذه البادرة ، يلتمس لنفسه درب الخلاص من امسه ليستطيع التوجه بقلبه واحساسه الى ينابيع من الالهام جديدة ، الى بشائر المستقبل .

انه في ذلك لا يعدو عمل الاغصان التي تتخلى مذعنـة عن ثمارها تحت ضغط الماوية المعربدة في العروق والالياف ، والملوحة

ناجم عن كثرة الاستعمال والتداول ، وضعف اعضاء النطق ، وتأثير البيئات الاجتماعية ، الى ما هناك من العوارض والآفات الملازمة كل مـــا هو بشري ومخلوق . وهو ليس من طور التكون والارتقاء ، بل من عصر الوهن والانحطاط . وهذا الناموس شامل كل اللغات . وكما ان البحث عن اصل الشجرة لا يقوم على التحري عن سيقانها واغصانها الظاهرة لعيون الناظرين بل على الحفر والتعميق للوصول الى جذورها وعروقها الخفية الغائرة في الارض ، كذلك لا يسوغ بدء الاشتقاق بالصيغة الثلاثية ، بل من الواجب التنقيب والتقصي، للوقوع على الرساس الثنائية ، وجعلها مبدأ للاشتقاق الطبيعي . وهذه هي الطريقة التي اتبعناها في تآليفنا المنشورة بالطبع ، وفي مقالاتنا المختلفة ، وفي هذا المقال ، كما في سائر معجمنا « الثنائي » . وقـد راق هذا الاسلوب جداً ارباب العلم الحقيقي، من اللغويين والالسنيين العصريين ، في الشرق ، ولا سيما في الغرب . الا اهـــل التعصب والجمود .

القدس — الاب مرموجي الدومنكي

بدبيب المواعيد مع البراعم الجديدة ؟ فهل يتفتح الرحم للمولود الجديد قبل ان يتخلص من الجنين الراقد في اعماقه ؟ ان هي الا صرخة تحتبس في الحلق او تجمد على الشفاه فلا يتنفس القلب الا بعد ان تنقلت من مسارب الانفاس .

ولكن ما همنا من اين جاء هذا الشعر ولماذا جاء ؟ حسبنا انه بين ايدينا. فلنلج اليه بعد ان نخلف على الباب شيطان العقل المنقب . ولنسكت في اعماقنا ضوضاء المعرفة السابقة واصداء العالم الخارجي . فالشعر عالم بذاته ودرب الى عالم . ولا سبيل الى الاحاطة بهذا العالم وبدروبه والى اكتناه معالمه ورسومه واجوائه الا لمن اقبل عليه بذهن بكر وحس خلي من روابط العالم السابق، وباستعداد مطلق للاستسلام الى سحر القوى الخفية الفاعلة في هذا العالم الجديد .

اول ما يستوقفك في قصائد هذه المجموعة، الشعر الذي ينبع منها . ونعني بالشعر هنا هذه الحرارة الوجدانية التي تنبض في كل حرف والتي تجعل من الشعر عملية اشعاع ذهني وحسي لا وجهاً من وجوه النشاط الفكري فحسب . وان القارىء ليحس نفسه مسوقاً لان يشارك في اندفاع هذه المغامرة الجمالية محمولا على اذرع كل الوسائل الخفية التي يعتمدها الشاعر للاستحواذ على لبه ، من غنى التعبير بالصورة ، الى صدمة الكلمات والاكتشافات اللفظية التي تبدو منبثقة من اعمق اغوار اللاوعي .

فهنا يكاد العقل يتخلى عن حقوقه امام عمل الخيال والحلم والحواس . فكأن الكلام سكب الخاطر ، وسيل من الصور واللوحات والرعشات التي تقفز على رؤوس الحروف ، فتجرف الشاعر والقارىء في شبه نشوة موسيقية .

واحمد ابو سعد ، رغم تمركزه داخل حدود القواعد العروضية والبلاغة الكلاسيكية ، استطاع ان يحمل اللغة الشعرية في قصائده من النغم واللون والحرارة ومن طرافة الصورة الفنية واناقة اللفظة وترف الزخرف في البناء ما يجعله في مقدمة شعراء الجيل الذي ظهر بعد سنة ١٩٤٠ .

فهو قد اتقن الى حد بعيد فن اثارة الجو الشعري حول حواس القارىء ولبه ، باطلاق الكلمة الغريبة الوقع ، واللفظة الساحرة الجرس ، بغتة ، كما في الفراغ ، لتحدث في النفس ما يحدثه تألق الشهاب الراصد في سماء الليلة الساجية . ولان للقارىء ان ينقاد الى فتنة النشوة التي يشبعها فيه هذا التوازن بين القيمة النوعية الثمينة الكامنة في مادة النسيج ورفعة الفن والزهو المنبعثين من ديباجة صنعه .

فشعر هذا الشاعر من الشعر اللبناني المترف الذي يحقق هناء التجانس بين المفردات ومعجزة التوفيق بين غنى اللمحة وقدرتها على الايحاء ، ورقة البيان الحلو الوشي ، ورشاقة الانبثاق ، وتطي الافكار في اتون يحترق فيه الوعي واللاوعي على النار الباردة .

الشعر الذي نقرأه في هذه المجموعة ليس مجرد ابنية لفظية انه فوق ذلك ، وقبل ذلك ، اطلالة حياة انسان من عندنا . اننا نلمح من خلال الاناقة في البناء والترف في الصياغة ، وجه فتى عضه سحر المجهول وغوى ايماءات الجزائر الخاليات والجنان الضائعة وراء الاحلام والاشواق .

واننا بالرغم من كل فتن المغامرة الحلوة نحو العوالم الوهمية التي يدعونا اليها .. لا نلبث ان نتبين مدى المأساة التي تختبىء وراء قناع «بائع الاحلام» الذي يحمله شاعرنا .

فهذا الشعر يكاد يكون ، في اكثره من بواكير انتاجه الرفيع . وهو في اكثره يدور حول هذه المواضيع التي يصعب اطلاق التسميات المألوفة عليها : انه من الشعر الذي قاله وهو ، بعد ، في فورة الصبا .

ولكن هذا الصبا الذي كان يفتح في كيانه قوى كل يوم جديدة ، يضاعف في عنف المأساة التي كانت تحتدم في قلبه اليافع بسبب التفاوت بين قواه المتحفزة ونهمه الى الحياة المطرد النمو مع دفق الصبا واصداء الطالع من الشعراء الشباب من جهة ، وبين الامكانيات المحدودة والآفات الضيقة التي كان يواجهه بها واقعه ، من جهة اخرى .

فابو سعد نظم اجمل قصائده وهو في المدرسة ولا نكتم سراً اذا قلنا انه اعطى اكثر شعره تحرقاً ولوعة وهو بعد على مقاعد الدراسة في الكلية الشرعية . اتراه كان يحس آنذاك ان العمة والجبة اللتين كانتا تجللان جبينه وعاتقيه الناحلين كانتا تقفان سداً بينه وبين الحياة ؟ فهل من حرج عليه اذا رفع صوته بالشكوى من هذا السجن الذي كان يشعر بروحه وبربيع عمره يجفان في جوه ؟

يا صباى المتاع يا حرقي   تتنزى ويا هواي الشقي
عاش فيك الشباب رسل هوى   وانا عشت في رباك نقي
بي لون الغروب منطفئا   وانا بعد ما استوى فلقي
امشي في الطرق منكسرا   فكأني امشي على القلق
أتقنفي في طرقها مقلي   والعذارى يجن في الطرق

اي شاعر لبناني عبر عن داء العصر الذي ينهش جيلنا بكلمات اغنى بالغصة والشفقة والحنين من هذه الكلمات ؟

ان هذه الصرخة الجريحة التي يطلقها ابو سعد لا تصور فقط وحشة الطالب الصغير في الكلية الشرعية الذي كان يشجيه ان يرى موكب الحياة يمر من تحت قضبان سجنه ، وانما تعبر عن كل الوان الحرمان وعفونة السأم والموت والقلق والاحتباس التي تجثم على روح الشرق . انها وثيقة الاتهام التي يقذف بهـا الجيل الجديد المتحفز للحركة والحياة والفرح في وجـه القرون العشرين المطلة عليه بتراث مقيت من الاستسلام للبؤس والتقية والمداراة والخوف من الضوء والجرأة والحرية .

وقد كان من المنتظر ان تتجه هذه النقمة على الواقع البائس الموحش الرتيب الذي كان يحيط بشاعرنا وباكثر نفوس النشء في هذا الشرق الموات ، الى المجاري المحتومة من الثورة النفسية الفاعلة اي النازعة الى هدم العلل الاجتماعية والتاريخية التي تقف حائلا بين جيلنا وبين الحياة الكاملة الصحيحة بالنضال ضد القوى التي تكمن وراءها .

ولكن هذه النفس الثائرة لم تتجل الا في بعض آثاره النثرية وفي بعض القصائد المتقدة بالحس الاجتماعي التي آثر ان يطويها بسبب بعد المناسبات التي قيلت فيها ، ولاحجامـه عن بلوغ نهاية الدرب التي يؤدي لها ذلك . .

والى جانب هذا الاتجاه الاجتماعي الذي لم يكتمل في شاعرنا لاسباب ، فان الشعور بجدب واقعه قد وجـد منسربا آخر دفعته اليه البيئة الفكرية التي كان يعيش فيهـا . فان قراءاته وصدف الحياة قد وضعت بين يديه آثار المدرسة الادبية اللبنانية المسماة بالرمزية والتي لم تكن في الواقع الا خليطاً من النزعات الرومنطيقية والبارناسية والرمزية المتفاعلة مع التراث العربي الغني باللمحات من كل هذه النزعات . فوجد في هـذا الغذاء الفكري الجديد اصداء لميوله واحاسيسه ومتنفساً لرغباته ولحاجاته الملحة لان يحقق ذاته . لقد فتح الشعر باب الفرج لهذه الرغبات وهذه الحاجات عند اضعف نقطة في ارجاء النفس . لقد شق لها الدرب الى الضوء من باب الاحلام . فالتقى بشعراء المدرسة الرمزية على الدرب الهاربة في الغسق نحو «الفراديس المصطنعة»

لقد اهتدى في منجم هذه المدرسة الى الافيون الذهبي ، الى العصا السحرية التي يخلق بها عالمه على هواه ويعمر بها واقعه الباهت الموحش لكل شهي من الاطياف الصاخبة في جوانب مخيلته الخصبة على نور وهج مغور .

فاسمعه في قصيدة « الشاعر الغريب » يصف هـذا اللعب بالاحلام :

كلما هجته ترنح وافتن   مشتا يند عبر الغيوب
فاراني حلمي بفرج الافق   صبايا اخذن بالتطريب
ونقلتن وانسرين من الجنة   يطللن من عيون الثقوب
هن غيدي من التوهم والنجوى   وغيدي من عالم محجوب
اتسلى بهن عن بشر الارض   عزاء المعذب المنكوب
اخلق الحلم ثم اعبد في الحلم   جمال الرؤيا وسحر القلوب

ترى هل وقع شاعرنا في خطر النارسيسية الذي يكاد يقف بالمرصاد على كل درب للاحلام ؟ اسمعه يقول في هذا البيت :

افتلوي نفسي علي فتهواني   ونفسي سحر الدم المشبوب
انا وحدي وحدي غريب عن الارض   غريب وبي التياع الغريب

فينبئك هذا القول عن تحدر صاحبه على هذا المنزلق القاتل الذي نحمد الله على تجنبه له في الابيات التالية عندما قطع الطريق على شكوكنا ليؤكد لنا انه اهتدى الى طريق الشفاء لنفسه من وحدته . ووجد في قول الشعر خلاصة من هذا الكبت :

انا وحدي وحدي ، ومالي سوى شعري   وشعري سلواي في تعذيبي
يتفشى دمي فايرىء من عينيه   شعرا ارويه عند المغيب

ثم يدلنا علينا بصفة الشاعر التي ترفعـه الى مصاف الرسل وتريه من عجيب الغيب ما لا يراه الناس :

شاعر في شفاهه عبق الوحي   وفي صدغه اصفرار الشحوب
يمسك الكوب وهو صاد ليسقاه   فيغمى على شفاه الكوب
هكذا الشاعر المتيم بالحب   قلوب وكوثر للقلوب
يترنى عوالما يجهل الخلق مداها   كأنها من ريوب

اهناك مثال اوضح على عملية التسامي بآلام الوحـدة الى الخلق الفني الرفيع ؟ اننا نكاد نلمس ، عند شاعرنا ، نية مبيتة على استخدام الاحلام كوسيلة للمعرفة . فكأني به لم يهرب على اجنحة الخيال الا ليوسع آفاق حسه ونفسه . فهو لا يرفض الواقع الا ليظهر تعلقه بالمغامرة الانسانية انه لم يتخل ابداً عن وظيفة الشاعر الاصيلة القائمة على التغني بجمالات الحياة وعلى بث شؤون الوجدان . وهو لا يقول الشعر للتبشير برسالة معينة . انه ينصرف الى الشعر لانه يجد لذة في فتح نوافذ قلبه وفي التعبير عما يضطرب في نفسه من رغبات وقلق وآمال وفي الافضاء بما يحمله من حب للحياة والناس والاشياء ومن شوق الى الضفاف

الخضر والديم والنجوم والعذارى والاطياف . اي الى كل ما تعارف الناس على انه الجمال ، الجمال الذي يؤخذ ، الجمال الذي يعطى ، الجمال الذي يبدع . انه لا يأنف من التحدث عما يراه وعما يحسه وعما يحبه ، حتى لا يحرمنا من مشاركته في متعة هذه الرحلة حول نفسه او الى تخوم العالم المحسوس .

غير انه مما يجدر بنا قوله هو ان الحرقة للصبابات واللهفة وراء نداءات الحياة اللتين ترتفعان من اعماق الحرمان في قصائده الاولى : « الشاعر الغريب » و« الحلم المجنح » لا تلبثان ان تخليا مكانهما لحالة من الغبطة والرضا استطاع بلوغها بعد ان ترك الجبة والعمة واندفع في تيار الحياة حيث وجد في العمل الايجابي والحب الحقيقي منصرفاً لطاقة الشباب المتأججة في عروقه والتي كانت تدق ابواب نفسه دقات لا سبيل الى ردها .

في هذه المرحلة التي يمكن ان نسميها مرحلة النضج او لاطمئنان يدور شعر أبو سعد الذي يقدمه لنا في مجموعته قصائد دافئة حول قطبين رئيسيين : الحب الجامح في جانب واللحظة الملهمة في الجانب الآخر .

فبعد ان كان الحب في القصائد الاولى ضرباً من التشوق الى اطياف مبهمة تسرح في جنائن من صنع الوهم ، اذا به يرتدي في بعض القصائد الاخيرة وخاصة « دمية الغدران » و« المهجة الذائبة » و« وثنية مؤمن » طابعاً اكثر واقعية وصدقاً في التعبير عن خلجات القلب والجسد . اننا نشعر بدم الحياة يدب في هذا الحب الارضي وبحرارة التجربة تلفح خلف الكلمات التي تعبر عنه ، كلمات مباشرة واضحة المقاصد ملتهبة الوقع والايحاءات ، فما ابعد ملامح هذا الحب الطاغي الذي ينبثق من هذه الكلمات ، كأنه الدم الحار ينبجس من فلذ اللحم والعظم ، من الشكاة العليلة التي كانت تتصاعد من ضلوع الشاعر في ايام احلامه . ولشد ما يشعر المرء بالدفء عند قراءة هذه القصائد الزاخرة بصور الحب ، وبجو مثقل بالرغبات والرؤى الشهية وبهتافات الجسد المنتصر ، فيشيع فيها قلق العطور في الادغال البكر ونشوة الرقص البدائي على لهب اندفاع جنسي وصوفي في آن واحد ، لا حد لطغيانه القاهر الساحر .

ولكن هذا الانحناء من قبل شاعرنا على خلج الحس في جسده لم يمنعه من التلفت الى الجانب الاسمى من كيانه ، الى اعمق ما في اغواره الذهنية فهو يحاول في القصائد «ليل الملهمين» و«اللحظة الملهمة» ان يقوم باشق دور كتب على الشعر الاضطلاع به : التعبير بالكلمة عما لا يعبر عنه .

انه يحاول ان يباغت عمليات الخلق الابداعي في ينابيعها وأن يصور بواسطة اللفظة مختلف الحالات والانفعالات التي يمر بها الشاعر ، فيسري بنا على « اذرع دنيا منشورة الآفاق» الى تلك البقاع الفاعلة في زوايا الوجدان ، الى حيث ينعقد الالهام داخل قدس الروح . فيوفق الى ابعد حدود التوفيق في بعث كل الجو الانفعالي الذي يرافق «اللحظة الملهمة» والى تصيد كل ما هو عابر ، واثيري وخارق واحيانا الجانب الجسدي ، الحسي الشهواني ، في هذه اللحظات ، عندما يهتدي الى الكلمات والتعابير المشحونة باللفتة الحالمة وطرافة الاكتشاف ودقة الايحاء وبكل التثبيتات والوثبات المرهفة التي تجعل من عملية الالهام اخطر الهنيهات الانسانية وادقها وبالتالي ابعدها عن سلطان الكلمة

وتسلت تحت وسدي انساب	فاذا بي كأنني في وثاق
اذ بصدري فيه ارتجاف العصافير	ونفسي كزورق منساق
غير اني وعيت شدا على قلبي	وخفقاً يحز في اعماقي
اتهاوى ما بين كف من الذهل	ورحب من صدر حلم باق
وانا كالشريد اسري على اذرع	دنيا منشورة الافاق
هتف الليل بي فهمت	وناداني ففاضت على فمي اشواقي
اين ، ثم التفت فاختلج الليل	واضفى بجاهات رقاق
هن مني قصائدي فلذ الروح	وسكر الهوى ودفء العناق
زفن كالحور غمست بالطراوات	وذابت كالجدول الرقراق
وتنزت من الحروف قطارات سناء	والشعر دنيا انطلاق

بقي جانب واحد لا يسعني الا ان انوه به في اعجاب هو هذا التوازن المحبب الذي استطاع ان يحققه احمد ابو سعد بمحاولته ان يزوج بين الحس والفكر وان يجمع في شعره بين الاستجابات لنداءات الجسد والاصغاء الى تحركات العالم الذهني . اليس هو القائل :

انا بين الحس والفكرة اعصار يهب
ما رمقت الحسن الا وتمادى بي غيب
ودنى من رجف الوهم واشباح تخب

اما بعد فقد آن لنا ان نترك للقارىء نفسه ، لذة استكشاف الاجواء الحلوة الملوحة وراء هذا الشعر الذي لا يدعى اكثر من نقل حياة صاحبه ، في احدى مراحلها ، الى سحر الحروف وعسى ان يتذوق معنا هذا الصفاء المنبثق من اتحاد الحلم والفعل الذي يشيع في هذا الشعر ، وان يهتدي الى ما يختلج في اناقة الفاظه من الشوق لاحتضان العالم الرحب عبر الحياة الملتهبة التي يطل علينا بها الشاعر وراء كل بيت من «قصائده الدافئة» .

علي سعد

وراء المجهول

الى الدكتور احمد زكي ابو شادي

لانور الجندي

السلمية ـ سوريا

طر بي ، وراء الغيب يا حادي
انا ظامیء ، انا متعب صاد
طر بي ، احس النار تأكلني
طر بي ، احس الوهم يشعلني
طر بي ، الى دنيا الاساطير
دنيا ، تموج بنفحة الحور
جسد ، يرف على يد النور
لا روح فيه ، نداء مسعور
دوت بـه آلاف آباد

***

طر بي ، الى المجهول سكرانا
انا من اضاع العمر حيرانا
طر بي ، ففي عيني اكوان
وتلفت للغيب ... ظمـآن
وهـواي ، انواء واسرار
وروٴى خليعـات ... واوطار
وخمائل شتى ... وانهـار
تجري ... فيهمس في الدجى عار
ويصيـح وهم الروح غيرانا

***

طر بي ، اكاد اعانـق الاملا
واميت في صحرائه المللا
والليـل ، سمار واقـداح
والليـل ، امواج ومـلاح
يدنو ... فتلفظـه يد القدر
وتشده الاوهـام للظـفر
حيران ، بـين الشك والحذر
يا زورقاً ... اشفى على الخطر
عد بالشريد ... وصارع الاجلا

***

مجهول ، يا حلماً على كبدي
يا دفقة الالهـام في خلدي
دنيـاك احـلام ، واحـلام
وطيوبك السمراء ... انغام
قل لي ، أفي الامواج الفاك
ام في تخـوم الغيب مرآك
انا مـا عرفت السهد لولاك
مهلا ... ففي عيني دنيـاك
وخطـاك لحن في فم الابـد

***

مجهول ، لو تصحو لالحـاني
لعرفت سر الكائن الفـاني
غثي ، ومـلء الدرب اشواك
واسى ، عميق الغور فتـاك
غثي ، ووهم المجد يقلقنـا
وعيونه الحمراء ، ترمقنـا
والموت ، هذا الموت ، يحرقنـا
بلهيبه ، والليـل يفرقنـا
يا موت ... ما انا وحدي الجاني

***

في الليل ، في الانهار ، في الشجر
حـول السفوح ، ترف بالزهر
في الشاطیء الهيمان ، يرتعش
والمـوج بلثمه ... فينتعش
غيب عميـق ، عمق آلامي
وعوالم ، تزهـو بانغـامي
فيهن اسراري ، واحـلامي
وبقية ، مـن امسي الدامي
نتف ، اعيش لهن ... في الذكر

***

جبت السماء ، وكلي امـل
ومضيت ، والاوهام تشتعـل
بي نزعـة رعنـاء للقمم
للغيب ، للمجهول ، للعـدم
وتحرق المطعـون للثـأر
تكويه اشباح من الغدر
والنقمة الشهاء في الصدر
كالقيح ، كالظلمات ، كالجمر
تعوي ... كأن الكون يقتتل

***

لن استكين ، لصرخـة القـدر
لا ... لن اموت مموه الاثر
ساعانـق المجهـول مخمورا
ساضمه ... في الليل مسحورا
ساذيب روحي في تنهـده
ساعطر الدنيـا بمولده
سارشها قبلا لموعـده
انا وردة حمراء ... في يـده
نديت باعراس الهوى العطر

***

لن استكين ، وفي دمي حنـق
لا ... لن يحـد مطامعي الافق
الكون ، في عيني حرمان
وتلهف ، للسر ... جوعـان
ساغيب في اجوائـه الخضر
كالطـير ، من زهر الى زهر
ساغيب كالامواج في البحر
واعود ، في اغنيـاءة الفجر
سرا ، يطيب بنفحـة العبـق

***

طر بي ، وراء الغيب يا قلب
انا ظامیء ، انا ظـامیء صب
طر بي ، احس النور يـدعوني
طر بي ، احس الليل يغريني
طر بي ، الى قيـلولة الحور
يرقصن ... انوارا على نور
طر بي ، الى جنـات سكير
مـاجت ، بتلويني وتصويري
مجهول ... انت المنهل العذب

***

عيناي شاخصتان ، يا حـادي
تتعثران ، بحلمي الصادي
وترقـب المجهول ينهشني
والليـل ، والاجواء ، ترعشني
انا تائه في موكـب النور
انا هـارب ، من جوف تنور
انا ، من انا ...؟ اوهام مغرور
ضاقت بهن يـد المقادير
طر بي ، الى المجهول يا حادي
« الكون ، والمجهول ، في ذاتي
سران ، يعتصران لذاتي »
صوت ، وعته الاذن في السحر
يسري الى الاعمـاق كالقدر
ووجمت ، احمل عبء نسياني
خجلا ... كأني غـير انسان
ووجمت ، اسمع بوح وجداني
« انا عالم ، انا عالم ثان
الكون ، والمجهول في ذاتي »

شوارب غليظة

بقلم محمود تيمور

بارح «عاشور افندي» – او بالحرى : «الشاويش عاشور» – داره في الضحوة العالية ، تاركا بلدته «كفر الشهارتة»، ووجهته ضيعة «الحاج رمضان» وكانت الضيعة على مسيرة نصف ساعة من ذلك الكفر .

ومضى الرجل يقطع الطريق الترب الذي تتعاقب فيه الفجوات ، وهو مرفوع الهامة ، مبسوط القامة، يضرب الارض بخطوات متزنة ثقال ، هي خطى الشرطي الاصيل، وشاربه الضخم المسنون الاطراف يهتز في خيلاء .

كانت شارة الشرطي ومشياته تتجلى في كل مظهر من مظاهره وان تخلت عنه تلك الحلة العسكرية ذات الشرائط المقصبة ، والازرار النحاسية البراقة... فقد اصبح حراما عليه ان يرتدي هذه الحلة منذ اشهر سلفت ، اذ احيل الى التقاعد، فاستبدل بها الجلباب الفضفاض المتهدل الكمين ، الكاشف عن النحر، يخب فيه خبا .

لقد استقبل «الشاويش عاشور» رسولا من «الحاج رمضان» يدعوه ان يزوره في ضيعته ، ولم يكن قد رآه قط ، وان سمع به ، وعرف اكثر شأنه ... «فالحاج رمضان» غطريف من غطارفة الريف ، يمتلك ضيعة رحيبة الارجاء ، تتيح له ان يحيا في بسطة من العيش ويسر، وانه لعظيم قومه ، لا يكاد يعلو عليه احد من عشرائه وجيرته في الغنى والجاه ورفعة المقام ...

لم يكن في وسع «الشاويش عاشور» الا ان يستجيب عن طواعية وترحيب، فقد استقر به المقام في مسقط رأسه «كفر الشهارتة» وقد بنى عزمه على ان يمضي فيه ما كتب الله له من ايام ، مستمرئاً السكينة والهدوء ، متنكبا عن زحمة الحياة ، متزهداً في صحبة الناس ، ولاسيما اولئك الوجهاء والاعيان من ذوي الاسماء النابهة والجاه العريض ...



حسبه من الضجة والصخب ما لقي في سنيه الثلاثين اللواتي امضاهن في دار «المحافظة» بالقاهرة ، اذ كان يحيا في اكناف عصبة من الرؤساء، يملأون الدنيا دويا بالقابهم الطنانة، ومناصبهم المهيبة، ويرى نفسه ظلا من ظلالهم التي تتبعهم اينما كانوا، او مطية من مطاياهم التي تنقاد لهم فيما ارادوا، او عصا من عصيهم يلوحون بها في وجوه الناس تارة ويلهبون بها اجسادهم تارة اخرى ...

وهل يذكر «الشاويش عاشور» الا انه كان خلال تلك الحقبة المديدة يجد نفسه كأنه دمية تتحرك بلولب، فهو في يومه الاطول ماثل يرفع يمناه ويهبط بها في حركة آلية ليؤدي تحية قدوم او تحية وداع ؟ ... وما كانت دار «المحافظة» تخلو ساعة من عظماء واشباه عظماء، ومن رؤساء واشباه رؤساء، لزام عليه ان يحييهم كلما لاحت اشباحهم من بعيد في قدوم او انصراف .

لا غرو ان يستشعر الرجل ضيقا بهذا النفر من خلق الله الذين يمشون في الارض مرحا ، تشمخ انوفهم كبرا ولكن ضيقه بهم يتضاءل بل يتزايل اذا وزن بما يحس من الكراهية والبغضاء لرئيس له عمل معه اثناء السنوات العشر الاخيرة من خدمته ، وهذا الرئيس هو «عشماوي المحافظة» او بتعبير واضح : جلادها الاعظم «الحاج درويش»

كان «الشاويش عاشور» ظلا حقا لهذا «العشماوي» ولكنه ظل ناصل هزيل... فصارى مهمته معه ان يأتي اليه بالجاني المحكوم عليه بالاعدام ، من حجرة السجن الى حجرة المشنقة ،

يسوقه كما تساق الشاة الى المذبح ، ثم يلبث معه حتى يشهد تنفيذ الحكم ، ثم يرافق الجثة حتى يتسلمها ذووها من يديه.. يا له من عمل خطير كان يؤديه. . لا يكاد يورد بضاعة حية «للحاج درويش» حتى يتلقاها منه رفاتا هامداً تعمر به القبور .

والفى «الشاويش عاشور» نفسه قد بلغ مشارف الضيعة التي يملكها «الحاج رمضان» فقد لاحت له ابنية ريفية غير متناسقة، وانها لعتيقة عبثت بها يد البلى ، فمال بعضها على بعض تخشى ان تسقط ، او تريد ان تنقض ، وقد احاطت بها شجيرات «العبل» وانتشرت حواليها نخيلات عجائز ...

وانقضت زيارته لرب الضيعة ، فانصرف من لدنه راجعـاً ادراجه الى « كفر الشهارتة » وما ان خطا بضع خطوات حتى جعل يضرب جبهته بكفه، وقد احتقن وجهه بغتة، واخذ يردد:

كلا ... لن يكون ذلك ... هيهات .

وثار على نفسه: كيف سارع الى قبول ما عرضه عليه «الحاج رمضان» اذ رغب اليه في ان يعمل عنده شيخاً لخفراء الضيعة.. كيف اذعن لذلك دون روية ولا تدبر ، كأنما هو يتلقى قدرا محتوماً لا معارضة فيه ولا نزاع ؟... كلا، لن يقبل ان يعمل عند احد ، وانه لعائد في بكرة غده لينهي الى رب الضيعة اعتذاره

وسار في الطريق ، مضطرب الخطو ، يسرع حينا ويبطىء ويده لا تني تلمس لبدته المتعالية ، موهما نفسه انه يصلح وضعها على رأسه .

ما اعجب ما شهد في هذه الزيارة ... يا لله لهـــذا الشبه القريب بين « الحاج رمضان » رب الضيعة وبين غريمـه القديم « الحاج درويش » « عشماوي المحافظة » ... لولا علمه على وجه اليقين ان « الحاج درويش » الجلاد قد بات اليوم في ذمة المنون لما شك في انه هو نفسه « الحاج رمضان » ... لقد اقبل «عاشور» يحيي رب الضيعة في منظرة الضيوف ، فرآه ماثلا امام الحجرة في قوام متكتل كأنه كرة مفرطحة ، ورأس ضخم يختفي تحت عمامة محبوكة ، ووجه مطهم هادىء القسمات ، وعينين تنسدل اجفانهما او تكاد ، واصابع تنقل حبات المسبحة في رفق ، فما ان ملأ منه عينيه حتى اخذته البغتة ، واوشك ان يصرخ قائلا :

ان « عشماوي » المحافظة قد بعث ثانية الى الوجود .

ولم تكن منظرة الضيوف خاليـــة من زوار يتحلقون حول « الحاج رمضان » ، فاحتسى « عاشور » القهوة معهم ، وبادلهم كلمات المجاملة ، وطارحهم الحديث في بعض الشؤون

وما لبث ان ألفى نفسه يقص على مضيفه طرفا مـن احداث حياته ، ويجيب عن اسئلته واستفساراته ، وقد احس من فوره هيبة له ، وما هي الا ان استسلم لما عرضه عليه من العمل معه في الضيعة شيخاً للخفراء .

وكان حقاً على « الحاج رمضان » ان ينتهز هذه الفرصة في استخدام « الشاويش » بعد ان تقاعد ، فهذا شرطي عمـل في « المحافظة » عشرات السنين ، فله بالضبط والربط خبرة ودربة وفوق هذا كله له شارب غليظ مسنون الطرفين يبعث الهيبة والتوقير بل ان هذا الشارب وحده كفيل بالايثار والاختيار ، فمن اولى من ذلك الرجل بمنصب « شيخ الخفراء » ؟

لقد تم الاتفاق ... ووعد « الشاويش عاشور » بان يقدم من غده ليتسلم عمله ، ولكن الرجل سيقدم غداً لا ليتسلم عملا ولكن ليصارح رب الضيعة بانه لن يعمل البتة عند احد ، لا عدول عن ذلك ولا مرجع .

ماله و« للحاج رمضان » وضيعته ؟ وماله و«لمشيخة الخفر»؟ الا فليدعه الناس لشأنه ، فقد طابت نفسه بانتهاء عمله في «المحافظة» وخلف وراءه اشلاء هذه الحياة التاعسة هنالك عـلى باب تلك الجدران العالية البالية في « باب الخلق » ، وهو اليوم يبدأ حياة جديدة في « كفر الشهارتة » ، حياة تتسم بطابـــع الطمأنينة والقنوع ، حيث يعايش هذا النفر الطيب من جيرانه واخوانه اهل الريف ، فيقضي معهم بعض وقته في مؤانسة وسمر ...

كان حلمه العزيز فيما سلف من ايامه ان يهنأ بعزلة وانعكاف خالصاً من التبعات والقيود ، وقد آن له ان يستمتع بتحقيق هذا الحلم في دعة وسكون .

لقد ختم حياته الغابرة ، وما هو بعائد اليها في صورة مـن صورها على اي حال تكون .

« الشاويش عاشور » مات بالامس ، بعد ان مات رئيسه « الحاج درويش » « عشماوي المحافظة » ، ولن يبعث ثانية في صورة شيخ للخفراء، طمعاً في الغنم ، او طلبا للامرة ، او التماسا للشهرة... فهو راض بما قسم الله له من عيش، وهو فارغ القلب من شهوات الحياة ونزوات التحكم والسلطان .

يا لها من ذكريات ماضية... شد ما لاقى من عنت وارهاق في عمله الحكومي السابق ، ولاسيما في صحبة ذلك « العشماوي » النكد ، ذلك الذي صبت عليه الاقدار لعنة الابـد ، فسخرت يده لضرب الرقاب وازهاق الارواح .

لقد شعر بالاشمئزاز من هذا الجلاد العتيّ منذ التقيا اول مرة فاستحكم بينهما عداء . وانه ليذكر ذلك اللقاء الاول .. لما ساق اليه الجاني المحكوم عليه بالاعدام ، ونفذ فيـه الحكم ، وخلت القاعة من شهود التنفيذ، تقدم الجلاد في خطا هينة من «الشاويش عاشور» وجعل يتفحصه بنظرات تومض من تحت جفونه المتراخية ثم قال له ساخر اللهجة :

ما هذا يا حضرة «الشاويش» ؟ ... لقد بـدا عليك امتقاع وتخاذل ، حتى لقد توهمت انك انت المحكوم عليه... ما نفع هذا الشارب الغليظ ؟ خيراً لك ان تحلقه .

فهمهم الرجل مخنوق الصوت : ما هذا القول ؟ ماذا تقصد؟

— لست كفئا للعمل معي في حجرة المشنقة ... اقسم لك برأس ابي ان يدك لم تقبض يوما على سكين لتذبح بها دجاجة .

وشملت «الشاويش» حيرة بالغة ، وغمغم في تلعثم :

كيف ذلك؟ وما ادراك بي؟ ان هذا الكلام يسيء الى سمعتي

واقبل عليه «الحاج درويش» يحدّ نظره اليه ، فازداد الرجل من حيرة وارتباك ، فقال الجلاد في لهجة المسيطر :

اصدقني القول ... هل ذبحت في حياتك دجاجة ؟ ... قل ولا تخف ... اعترف .

وجمجم «الشاويش» وهو يزيغ بصره عن الجلاد :

الحق اني لم افعل ...

— ارايت ان حدسي لم يخطىء ؟..

وبسط الجلاد يده ، وطفق يربت كتف « الشاويش » وهو يقول :

خليق بك وانت « شاويش المحافظة » ولك هـذا الشارب الغليظ المسنون ان تكون شجاع النفس، لا ترهب منظر ازهاق الارواح . اذهب فاذبح لك دجاجة ، او على الاقل فروجة ، فان لم تستطع فاحلق شاربك ، فانت به غير جدير .

وانصرف الجلاد من الحجرة رزين الخطوات ، والسبحة بين اصابعه ينقل حباتها الضخام ، وذكر الله يـتردد على شفتيه في وداعة وصفاء .

وقصد « الشاويش » من فوره الى حجرته الخاصـــة في « المحافظة » او على الاصح : جحره المعتم العتيق .. ومثل امام حطام من مرآة معلقة على الحائط ، ينظر الى شاربه الغليـــظ المسنون ، ذلك الرفيق الكريم الذي خصه « الشاويش » بالحب والتكريم ، وبذل في الحفاوة به وسعه ، يضمخه بالدهون ، ولا يألوه من تشذيب وتمشيط ، ويسن من طرفيه في احكام وارهاف واخذ يردد فيه النظر ، وهو يتحسر : احقاً انه غير جدير ان يحمل هذا الشارب العظيم ؟ وما لبث ان امتدت اصابعه اليـه يفتله ، وكأنه يعتذر اليه ويستغفره .

قضى «الشاويش عاشور» يومه في «المحافظة» واقوال الجلاد تحاصره ... ما اشد خجله من حاله المزرية ... كاد مشهد تنفيذ الاعدام امامه يودي به ... وفي ذلك عار جسيم ، فلزام عليه ان يستدرك هذا الضعف من نفسه ، وان يكون كفئاً للمهمة التي يمارسها غير خوار ولا هيوب .

ومما زاده ضيقا على ضيقه انه اعترف للجلاد بانه لم يـــذبح دجاجة في حياته .. لم يكن احد يدري ذلك عنه ، فما باله يذيع سره الخفي ؟.. لا ريب في انه يعاف الذبح ، ولا يطيق منظر الدم المسفوك ، ويمقت ازهاق الارواح كل المقت ، ولكن هذا كله لا يلائم مهمته التي نيطت به ، وتعلقت بها رجولته وكرامته

ذكريات مريرة تواردت على مخيلة الرجل ، كأنها اسراب النحل تلسعه ، فشق عليه طريقه الترب غير الممهد ، وهو يتابع سيره عائداً الى بلده « كفر الشهارتة » بعد ان لقي «الحاج رمضان» رب الضيعة ، وقبل ما عرضه عليه من العمل عنده شيخا للخفراء ..

وما فتئت الذكريات تلاحقه في طريقه ...

كيف مرت به هذه الاعوام العشرة الاخيرة التي تقضت في صحبة ذلك الجلاد العتي ، ومن كتب عليم ان تطاح اعناقهم على مشنقته ... لقد الف «الشاويش عاشور» عمله ، فزايلته الرهبة ولم تعد تفزعه تلك الحجرة الغريبة التي تبدو فيها آلة الشنق ساذجة الشكل تافهة المظهر ، بيد ان كراهيته لذلـك الجلاد لم تهدأ ، بل تزايد اوارها يوماً بعد يوم ، وانها لكراهية عجيبة يخالطها اكبار وتمجيد على الرغم من امعان الجلاد في الزراية بـــه ، والسخرية منه ، ومواجهته في الحين بعد الحين بقوله :

فيم هذا الشارب يا حضرة وانت لا تستطيع ذبح دجاجة ؟

لقد حاول « الشاويش » — مرات بعد مرات — ان يعالج ذبح فروجة على سبيل التمرين ، ولكنه باء بالخيبة ، فعول على الا يزاول ذلك مرة اخرى ، على الرغم مما يناله من تهكم لذاع فقد اصبح كل من تضمهم دار « المحافظة » من موظفين وعمال يتنادرون عليه ، ويتناقلون هذه النكتة العظيمة : « الشاويش عاشور» بجلالة قدره وبالرغم من فخامة شاربه لا يستطيع ان يذبح دجاجة .

وكان على رأس ذلك الجمع الزاخر عامل القهوة «عبدالعليم» رجل انيق البزة ، رشيق المنطق ، يتباهى بلباقته وظرفه ،فهو يجيـد انتقاء الفاظه المبرقشة ، ويتلفظ بها في نغمات طلية ، كما يحسن اختيار اثوابه الزاهية،ويتفنن في حياكتها على ازياءمختلفة ويتردد في ارجاء «المحافظة» متحدثا الى الموظفين والزوار في تبختر واختيال ... وقد اتخذ هذا الرجل من قصة «الشاويش عاشور» لقمة سائغة لا يفتأ يتشدق بهـا في سخرية معسولة ، ظاهرها لين ورفق وباطنها اشواك كرؤوس الحزاب ، فهو لا يرحمه من غمزاته ولمزاته ، مثيرا حواليه ضجـة من التضاحك والصياح ، وكانت سخريته به تدور حول النكتة الطريفة التي تصور «الشاويش»العظيم الشارب عاجزاً عن ان يذبح دجاجة.. والعجيب ان «عبد العليم» كان وهو يناوش «الشاويش» بتلك التهكمات يمضي في مزاولة عمله في مظهر مألوف، وكانت العلاقة بينهما على الرغم من هذا كله تقوم على صفاء زائف مصنوع يوارى تحته كامن البغضاء .

لم يكن « الشاويش عاشور » في دخيلة نفسه راضياً عن ضعفه ولكنه اعتقد ان ذلك قضاء من الله لا مرد له ، وانه ليذكر اطيافاً شاحبة لحادث وقع له في بواكير صباه ، اذ تقدم ليذبح دجاجة ، وبينما هو آخذ بخناقها ، والسكين في يده يوشك ان يهبط بها على رقبة الدجاجة ، اذا هي تنفلت من بين اصابعه ، واحس منقارها الحاد يعض يده ، فصرخ يستغيث ، ولاذت الدجاجة بالفرار ، فلم يعثر لها على اثر . وشعر الصبي بعد حين بان يده تتورم ، وان ذراعه يصيبها خدر ، وقضى اياماً يتوجع ولا تكتحل عيناه بالنوم من شدة الالم ، وكاد الطبيب يأمر بان تبتر يده ، لولا ان لطف الله به ، فشفي من جراحته. وكان يرى في احلامه شبح شيطان مخوف يتمثل له في صورة دجاجة، وينهاه ان يمس الدجاج يوماً بسوء ... وتواصلت به الايام من بعد ، تنسيه هذا الحادث الاليم ، ولكن يده ظلت ذاكرة يقظى لا تبيح له ان يهش بها على دجاجة .

تبدل الآن كل شيء ، فما له وللدجاج وذبح الدجاج... لقد اعتزم اليوم ان يعيش ما بقي له مـن حياة في بلدته الريفية الحبيبة « كفر الشهارتة » مسدلا ستاراً كثيفاً على ماضيه بخيره وشره ، اما رئيسه « الحاج درويش » الجلاد فقد غاله الردى الى الابد ، وأما عهده البغيض في « المحافظة » فقد انقشعت عنـه احداثه طاوية معها تلك الزمرة الكريهة من الرؤساء والموظفين والعمال ، ومن بينهم عامل القهوة الخليع « عبد العليم » . .. وانه ليستمرىء اليوم عهداً جديداً خالياً من اسباب التنغيص لا عناء فيه ولا رهق .

سيعود غداً الى « الحاج رمضان » رب الضيعة ، وسيبلغه انه يأبى مشيخة الخفر لا محالة ...

... وبعد ايام الفى « الشاويش عاشور » نفسه يعمل في ضيعة « الحاج رمضان » شيخاً للخفراء ... وحاول غير مرة ان يناقش نفسه الحساب ، كيف تم ذلك على غير رضا منه ؟ فلم يكن يخلص من مناقشة نفسه ومحاسبتها الا ان ذلك قضاء مكتوب على جبينه ، وليس ثمة من قوة تستطيع ان تمحو ما هو مكتوب على الجبين .

لقد عاد يعمل ، وكأنه يراجع عمله القديم ، فهنالك مشابه بين يومه وامسه ، وليس عمله في مشيخة الخفر الا امتداد لعمله حين كان « شاويش المحافظة » ،حتى رئيسه « عشماوي »الجلاد يراه مبعوثاً الى الحياة في اهاب « الحاج رمضان » رب الضيعة . ما اعجب التشابه بين هذا وذاك ...

كان « الحاج درويش » الجلاد وديع المظهر ، انيس المحضر يتقدم مسبل الاجفان الى المحكوم عليه بالاعدام ، فيسوقه في رفق وتلطف الى المشنقة ، كأنه يسوق ضيفاً الى مأدبة طيبة، وكان يغطي رأس ضيفه بقناع يحجب وجهه كأنه يتوجه تأهباً لحفل بهيج ، ثم يأخذ بمقبض الآلة والمسبحة لا تفـارق يده ، وابتسامة الدعة لا تتخلى عن فمه ، ولا يلبث ان يردد : « على الله توكلت ... » ويحرك الآلة في غمضة عين ، فيتردد الجسد في الهوة على الفور .

أليس هذا عينه مظهر « الحاج رمضان » في ضيعته ؟او ليس هذا سلوكه مع من يصب عليهم عذابه ممن يعملون تحت امرته او ليس شيخ خفرائه « الشاويش عاشور » يقف منه اليوم كما كان يقف بالامس وهو « شاويش المحافظة » من رئيسه «عشماوي» الجلاد ؟ ألم يعاود عمله فيما سبق ؟ انه يقـود الجاني او بالحري المحكوم عليه الى ساحة الدوار ، فيتقدم « الحاج رمضان » رب الضيعة وئيد الخطو ، في قوامه المتكتل المكور ، ورأسه الضخم المختفي تحت عمامة محكمة الوضع ، وعينه مسبلة الجفن او تكاد ، والمسبحة في ذراعه معلقة ،وفي يمناه سوط ناعم الملمس كلسان الافعى ، ولا يلبث ان يأمر بطرح الجاني ، ووضـع قدميه في الفلقة ، وما هي الا ان يرفع السوط ويهبط به في ضبط

واحكام على نحو هين رفيق ... انها ضربات معلم اصيل تصيب الاهداف في غير جلبة ولا عنف ، وبينما يجأر المضروب بالشكوى والتضرع ، يتابع « الحاج رمضان » عمله ، والابتسامة الوادعة تتخايل على وجهه المطهم ، ولسانه يلهج باسم الله مستعيناً اياه .. فاذا انتهى تنفيذ الحكم ، تولى « الشاويش عاشور » تسليم المضروب الى اهله ، والدم يشخب من قدميه ، كما كان يفعل من قبل حين يسلم جثة المشنوق الى ذويه .

يا لبشاعة ما يرى .. انه ليحس لهذا الجلاد الجديد ما كان يحسه من اشمئزاز ومقت للجلاد القديم .

ما اشبه الليلة بالبارحة ... دنيا اليوم هي عينها دنيا الامس ، احداثها لم تختلف ، واناسها هم لا تغيير ولا تبديل .

لكأن القدر يعيد له المآسي الماضية كما كانت ، وان حاول ان يموهها عليه بقناع جديد ...

ولكأنما كان حتماً ان تستكمل حياته اليوم عناصر حياته بالامس جميعاً ... فقد اضيف اليها عنصر لم يكن يخطر ببال « الشاويش عاشور » ان يظهر عوداً على بدء ، ففي ذات يوم ذهب الرجل الى منظرة الضيوف ليراجع « الحاج رمضان » في بعض الامر ، فواجهه على الفور ضيف يجلس بجوار رب الضيعة يحتسي معه القهوة ، ومثل « عاشور » مشدوهاً زائغ البصر ، وصافحت اذنه تلك اللهجة المعسولة التي انطبعت في طوايا ذاكرته لا يمحوها كر الايام ، فقد سمع الضيف يقول له :

اهلا بابى الشوارب ... مصادفة غريبة ... كيف انت يا صاحبي ؟

وألفى الرجل نفسه يرد التحية هزيل الصوت قائلا :

الحمد لله ... مرحباً بك .

والتفت « الحاج رمضان » الى ضيفه يقول له : اتعرفه ؟

فاجاب الضيف في تشدق :

كيف لا اعرفه ؟ لقد كنا معاً في « المحافظة » .. من يجهل « الشاويش عاشور » الرجل الطيب ؟ من ذا الذي يرى شاربه العظيم المسنون الطرفين ثم ينساه ؟

وهمهم « الشاويش عاشور » يقول : العفو ... العفو ...

وواصل الضيف قوله في تلك اللهجة البريئة المظهر :

ان « الشاويش عاشور » مثال الرقة والرحمة ... انه كالحمامة الوديعة ... اتصدق انه لم يذبح في حياته دجاجة ؟

وفغر « الحاج رمضان » فاه ، وعقدت الدهشة لسانه ، وبعد

هنيهة رفع صوته يتساءل : لم يذبح في حياته دجاجة ؟

واتجه الى «عاشور» يقول له : احقاً ؟

ولم يملك الرجل الا ان يجيب : هذا صحيح .

وتعالت الضحكة من اشداق «الحاج رمضان» رب الضيعة على حسين ظل الضيف هادىء القسمات .

وفي الايام التالية التي امتدت فيها اقامة عامل القهوة «عبد العليم» ضيفا على «الحاج رمضان» كان يقص على رب الضيعة اشتاتا من النوادر والمفاكهات يتناول فيها (عاشور) بلهجته الساخرة متظاهراً بانه يتغنى بما انصف به من رحمة ورقة ولطف.

وهكذا بعثت حياة (الشاويش عاشور) السالفة كما هي ، لم يتخلف منها شيء .

وارتحل (عبد العليم) عن الضيعة ، تاركا وراءه مأثر من طيبات لا تنسى ، فقد كشف عن تلك الحقيقة التي يتجلى فيها شيخ الخفراء بانه لم يذبح في حياته دجاجة ، وما لبث الخبر ان شاع في الضيعة وذاع ، فتناقله الاهلون في دهشة ساخرة ، وشرعوا ينسجون حول هذه الحقيقة حواشي موشاة ، ويصدرونها بضاعة رائجة الى القرى المجاورة ... فلم يمض قليل وقت حتى اقتحم الخبر بلدة (كفر الشهارنة) نفسها ، معقل (الشاويش) الحصين ، وما هي الا ان فشا فيها كما يفشو الوباء الطارىء ، وبات الخبر مضغة الافواه في مجالس السمر ، حتى النسوة كن يتحدثن به على الجداول وهن يملأن الجرار في الاصائل ، والصبية كانوا يتصايحون بهذه النكتة العجيبة في الغدوات والروحات .

وكان (عاشور) يعلم ذلك كله ، فيرقب الجمع بعين زائغة ، ونفس منقبضة ، ويحس ان قامته الفارعة تتطامن ، وان شاربه الضخم المسنون قد اخذ يتقاصر وينكمش .

انه منذ هبط الريف يؤثر العزلة ، ويقل التزاور ، ويتجنب مجالس القوم ولكنه الان وقد شاعت هذه الاحاديث عنه اصبح اشد اعتزالا للناس ، واكثر نفوراً من اتخاذ الصاحب والخدين

لقد ارتسم على وجهه التجهم والتخوف والحذر ، واخلد الى الصمت معظم الوقت ، بيد انه لم يفكر لحظة في ان يتخلى عن عمله الذي اريد عليه ، فقد اضحى يعتقد ان كل امرىء خلق في هذه الحياة ليؤدي ما تفرضه عليه الاقدار دون مناقشة او اعتراض

ويوما وهو يسوق الى (الحاج رمضان) احد العصاة لينفذ فيه عقوبة الضرب ، سمع رب الضيعة يقول له :

مالي اراك خائر العزم واجف القلب ؟ ما نفع هذا الشارب الضخم المسنون ؟ خير لك ان تحلقه .

وثارت عاصفة من التضاحك والاستهزاء بين شهود هذا الموقف ، فأحس الرجل بالدم يغلي في رأسه ، فتلفت حواليه فترة يرمي الحاضرين بشواظ عينيه ، وما ان وقع بصره على بصر (الحاج رمضان) حتى انتفض في وقفته ، وما اسرع ان حنى رأسه يردد الفاظاً مهوشة في صوت متخلج هزيل .

وامضى يومه وهذا المشهد العصيب يحاصره ، وقولة (الحاج رمضان) تطن في سمعه ، ولما اوى الى داره قصد من فوره الى ركنه المختار حيث يعلق على الحائط حطام مرآة ، ومثل امامها ينظر الى وجهه على ضوء المصباح الاغبر ، فالفى شاربه متضائلا مبعثر الشعرات يعلوه قتام . فحز ذلك في قلبه ، واقبل على الشارب يضمخه بالدهون ، ويمعن في فتله كل الامعان .

وفي مستأنف الايام لم يدع (الحاج رمضان) مناسبة الا انتهزها للاستهزاء بشيخ الخفراء ، في اسلوب عليه من الملاطفة طلاء ... واكثر ما كان يلهب غيظ (عاشور) ان رب الضيعة كان يتخذ لمداعباته الثقيلة الواخزة فرصة ازدحام الدوار بجموع الزراع ، او امتلاء منظرة الضيوف بمختلف الزوار ، ولكن الرجل لم يكن يملك الا ان يلوذ بالصمت ، وربما شارك القوم في التضاحك ، ليخفي ما يضطرم به قلبه من حفيظة وتغيظ .

وكيف لا يصبر (الحاج رمضان) رب الضيعة على ان ينال من (عاشور) على هذا النحو المزري به ، وهذا (العاشور) قد اخفى عنه حقائق من شخصيته ذات بال ، فلولا قدوم الضيف (عبد العليم) عامل القهوة لما عرف رب الضيعة شيئاً من هذه الحقائق المستورة . ولعله قد آلمه ان ينخدع بما يتحلى به هذا (الشاويش) من شارب ضخم مسنون ، وبما له من ماض مديد في خدمة الامن ، فولاه مشيخة الخفراء ، حاسبا ان له من شجاعة النفس وصرامة الطبع ما يؤهله لهذا المنصب الخطير .

وتتابعت الايام على هذا المنوال ... (الحاج رمضان) يغلو في السخرية بشيخ خفرائه ، ويندد به ما وسعه ان يندد ، و«عاشور» يزدرد هذه السخريات على مضض ، فتتراكم في حنايا نفسه طبقات بعضها فوق بعض ، وتثقل وطأتها عليه .

واستبد الشك بالرجل في كل شيء : في شخصيته ، وفي البيئة التي تحيط به ، وفي الناس الذين يخالطهم ويخالطونه ، فقد تشابهت عليه الاحداث وتشاكلت ، وامتزجت عنده الحقيقة بالخيال ، وتداخل امسه في يومه ، فلم يعد يفرق بين الصور والشخصيات

والمعالم ، واصبح لا يرى الا اعمالا ونتائج لا تميز فيها بين ماض وحاضر ...

« ما نفع هذا الشارب الضخم المسنون ، وانت من الجبن والخور بحيث لا تستطيع ذبح دجاجة ؟خير لك ان تحلق شاربك »

كانت هذه الجملة تصك سمع « عاشور » في صباح ومساء ، فان ملك النوم عينيه راعته في طائف الاحلام ، كأنها الألم الراتب الدائب ينبعث من ضرس نخر تغلغل فيه السوس فجعل ينشر سمومه في دم صاحبه غير مقطوع ولا ممنوع .

وجاء يوم استدعاه فيه « الحاج رمضان » فلبى دعوته ، وقدم على منظرة الضيوف وقد غصت بالزوار ، فوجه اليه رب الضيعة الواناً من اللوم والتعنيف لتقصير كان منه في الضبط والربط ، وما كاد « عاشور » يدفع التهمة عن نفسه ، ويتبرأ من تقصيره ، حتى انقض عليه اثنان من الخفراء يأخذان بساعديه وخطا اليه « الحاج رمضان » رب الضيعة خطواته الهينة الرقيقة وعلى فمه ابتسامة ، ويداه معقودتان خلف ظهره ، وقال له في لهجة رخوة لينة :

لقد نصحت لك غير مرة ان تحلق شاربك الذي لا يلائم ما انت عليه من جبن وخور ، فلم تنتصح ... فلا حيلة لي الا ان اريحك منه .

وفي لمح البصر لمع المقص في يد رب الضيعة ، وسرعان ما اختفى الشارب ، وتجاوبت ارجاء منظرة الضيوف بالنكات والضحكات .. تم ذلك كله في خطفة ؛ والرجل ذاهل عن امره لا يكاد يعيه ، فقد حسب اول وهلة ان (الحاج رمضان) لا يبغي الا الدعابة والمزاح ، ولكنه حين اخلى سبيله ، ومضى في طريقه ، رفع يده دون وعي يتحسس مكان شاربه ، فلم تصادف انامله الا بقايا مبعثرة من ذلك الشارب العتي ، كأنها جذور اشجار قلمت افنانها الفارعة ، فتملكت الرجل قشعريرة ، وتلفت حوله ، فالفى الناس يتلاحقون به ويحدقون اليه في شمات ، فحث خطاه يبغي ان تواريه الدار عن العيون .

وما ان احتوته داره حتى احكم اغلاق بابها خلفه ، وهم ان يتجه الى ركنه الحبيب ليتطلع الى وجهه في المرآة ، ويتبين اثر الكارثة التي حلت به ، ولكنه تثاقل ، فهم ثانية ان يفعل ، ولكنه احس في اعماق نفسه بحاجز يمنعه ان يتقدم ، فقعد القرفصاء ، وانسرح يفكر ، ثم قام يلتمس شمعة فيوقدها ذاهبا بها الى اقصى الفناء ، حيث تقبع هنالك حجرة مهجورة معتمة كأنها جب موحش مرهوب ، وكانت هذه الحجرة ملقى للنفايات والمهملات ، ولم يكن (عاشور) يقربها الا ليقذف فيها بما لا حاجة به اليه ، وما وطئتها قدماه منذ هبط الضيعة الا في الندرة ، اذ كان يرهبها ولا يرتاب في انها مرتع لاشباح الجن والشياطين .

اشعل الرجل شمعته ، واقتحم بها الحجرة في جرأة نادرة ، ودار بعينيه يتبين ما تحوى ، فاذا هو امام كومات من الفضالات والانقاض عليها غاشية من وحشة قاتمة ... وظل فترة يتفحص ارجاء الجب ، ثم تراءت على وجهه ابتسامة بشعة تستمد طابعها من ذلك الوكر الموحش ، ثم غادر الحجرة عائداً الى الدار ، فتوسطها رافعاً هامته يتحدى ، وقد برق في عينيه شواظ من نار ، ثم جمجم يقسم وينذر في عنف واحتداد .

واحتبس في الدار اسبوعين لم يبرحها ساعة من نهار او ليل فاذا طرق الباب طارق أجابه بانه مريض ، وما كان المرض ليعرف طريقه الى جثمان الرجل ، ولا سيما في هذه الفترة التي يقضيها حبيس الدار ، اسير تفكير عميق ، يدبر خطة نبتت جذورها في رأسه يوم ذهب المقص بشاربه .

ولم يقصر الرجل وقته ابان استخفائه على مجرد التفكير ، ولكنه نشط للعمل ، متخذاً من ذلك الجب المهجور مراحاً ومغدى ، فاعمل فيه يد التنظيف والترتيب ، كأنما يعده ليكون له ماوى .

ورجع (عاشور) ما انقطع من عمله عند (الحاج رمضان) فمارسه على نحو ما كان يفعل من قبل ، ولوحظ عليه تحول ظاهر في مسلكه وفي خصاله ، فقد زايلته نزعة الاعتزال ، وانخرط في زمرة الناس يداجيهم ويتودد اليهم ويساقيهم صفو الاحاديث وكان اول ما قام به حين استأنف عمله ان اقبل على رب الضيعة خاشعاً يتوب اليه من الذنب ، ويلتمس السبيل الى مغفرة ، ويؤدي له فروض الطوع والولاء وكان فيما بعد اذا داعبه (الحاج رمضان) فانقل ، واذا استهزأ به فازرى ، لم يبد تأففاً ولا تضجراً مما يسمع ، وانما يتقبل كل ما يقال له وهو واسع الصدر مسماح صفوح .

فاذا انتهت مهمته في الضيعة آخر النهار ، هرع الى ذلك الجب المهجور في داره ، يواصل فيه جهده ، ويتابع عمله ، وقد قلص جلبابه ، وشمر كميه ، انه يزيح من الجب احمالا من التراب المركوم ، وينقل اليه الواحاً من الخشب وعوارض

بين طوال وقصار .

وتمشت الاريحية في جوانب الرجل ، فاخذ يقيم في داره الحفلات ، داعياً اليهـا القريب والبعيد ، عاقداً فيها حلقات الاذكار عن كثب من موائد الطعام ،فاذا فرغ الجمع من ذكر الله ، وتناشدوا الاهازيج الرقاق على نغمات الناي الحنون ، احدقوا بالموائد يطعمون ويسمرون .

ورطب الناس ألسنتهم بالثناء على(عاشور) يحمدون له هذه المكرمات ، ويشيدون بمـا طبعه الله عليه من دماثة الخلق وحلاوة الشمائل ، فترنحت اعطاف الرجل اغتباطـاً بحسن الاحدوثة ، ولكنه وضع نصب عينيه ان سعادته لا تكتمل حتى يزوره (الحاج رمضان) في داره ،فيشارك في حلقة الذكر ، ويصيب مما يعده له من طعام .

ولانت اخيراً عنجهية رب الضيعة ، فقبل الدعوة بعد لجاجة والحاف،وبدأت الحفلة مزدهرة متألقة يؤمها حشد مختار من علية القوم احتواهم فناء الدار ، ومدت أسمطة الطعام على حصر مخططة ذات الوان ، وحجبت سماء الفناء بخيمة تزهو بما وشيت به من زخارف ، وما كتب فيها من آيات قرآنية بينات ، على حين تدلت منها مصابيح متوهجة الانوار تخطف الابصار .

ولقى (الحاج رمضان) حفاوة الحشد كله ، وشخصت اليه من كل صوب ، وكان أشد الناس احتفاء به صاحب الدعوة ، اذ هيأ لضيفه العظيم مكان الصدر ، واعد له فيه تكرمة وثيرة الحشايا ليطمئن عليها في مجلسه ، وكانت هذه التكرمة على هيئة عرش مهيب تلتف به النمارق والوسائد .

اما حلقة الذكر فقد اريد لها هذه المرة ان تعقد قبالة الدار عرض الطريق ، فاحاطت بها جموع غفيرة من الصبية والغلمان في صياح ومراح ، وبعـد حين انتظمت الحلقة ، وانبعثت الاهازيج من الحناجر ، واخذ الناس يترنحون ويطوحون برؤوسهم ذات اليمين وذات الشمال ، وتتعالى همهماتهم بتمجيد الله ، فتدنيهم من غيبوبة علوية صوفية محببة ، وفي حمية هذا الانسجام الشامل اقترب (عاشور) من (الحاج رمضان) جاثياً على ركبتيه ، مطأطئاً يقبل يد الضيف العزيز ، قائلاً له :

. لقد رفعت من قدري بين الناس بحضورك هذا الحفل ،أعلى الله مقامك ، وأنزلك عنده خير المنازل .

ورفع عينيه مستعطفاً يقول :

هلا اكملت فضلك علي فأكرمتني بجولة عاجلة في داري المتواضعة ، حتى تحل عليها البركة ويعم فيها الخير .

فغمغم (الحاج رمضان) وقدهزته الحفاوة واسكره المديح : حباً وكرامة يا (عاشور) .. لا اخيب لك رجاءك .

وما عتم ان نهض ، فطاف به مضيفه في حجرات الدار ، وما ان اوشك على نهاية المطاف حتى دنا منه يهمس له :

لم يبق يا مولاي الا ركن العبادة الذي استأثر به لنفسي ..

ــ اي ركن يا « عاشور » ؟

ــ انه شبه زاوية صغيرة اتخذهـا لصلاتي ونسكي في اقصى الفناء .

ــ شيء عظيم . .

وسايره الى ذلك الجب المهجور ، فما ان قاربا الباب حتى تقدم منه « عاشور » يفتحه وفي لحظة ابتلعهما الجب ، وارتـد خلفهما الباب . .

وبغتة علت صيحة خنقت اصداءها جلبة الذكر الجهير ، فلم يسمع بها احد . . وكانت هذه الصيحة الوحيدة التي استطاعت ان تفلت من شقوق الباب واطبقت على الجب غاشية من صمت مـوحش كئيب .

وبعد قليل انفتح الباب ، فخرج منه (عاشور) يسطع على محياه زهو الانتصار . . وحسر لبدته شيئـاً عن رأسه ، ومر بسبابته مسرعاً على جبهته ، فتناثر العرق في الفضاء . .

واتخذ الرجل سبيله الى حجرته في صميم الدار ، واتجه الى ركنه الحبيب حيث يقوم على الحائط حطام المرآة ولم يكن قد عدل الى هذا الركن منذ اودى المقص بشاربه ، فجعل يتصفح وجهه في المرآة متنفخاً يعلو صدره . .

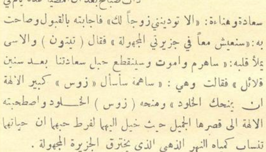
لقد نبت (للشاويش عاشور) شارب عجيب لا عهد لـه به . . انه شارب ضخم يطول يمنة ويسرة حتى يبلغ جـانبي الحجرة ، وان طرفيه المسنونين ليتساميان حتى يبلغ كلاهمـا السقف . .

واخذ الرجل يطلق الضحكات مجلجلة ، وهو يمعن في فتـل الشارب العظيم ، على حين اخذ الهواء يعابث باب الجب في اقصى فناء الدار ، حتى فتحه على مصراعيه . فبدا على الاثر مشهد يبعث الروع :

مشنقة كاملة العدة ، اقيمت في وسط الجب ، يترجح عليها جثمان « الحاج رمضان » .

القاهرة

محمود تيمور



اجمع الناس منذ القدم على وجود آله قادر على كل شيء خالق الانسان والجماد والحيوان. وكان للاغريق آلهة يعتقدون في خلودها وكان اكثر ما يشغف به الهتهم الشابات الجميلات او الشبان ذوو الحسن من البشر. وكانت تلك الالهة تحمل من يقع عليها اختيارها الى قصورها الشامخة على جبال اوليمب ولكن كان يفوتها ان تطلب لهم الخلود من كبير الآلهة فيموتون ويفنون بعد سنين كامثالهم من البشر وحتى لو ذكرت الآلهة ذلك فقد كان غالباً ما يفوتها ان تطلب لهم منحة الشباب الابدي وكان على من يقع عليه اختيار الآلهة ان يخضع لناموس البشر الذي يقضي على كل انسان بان يحتمل اوزار الكهولة وان يجتاز مرحلة ما بعد الشباب. اما سكان جبال اوليمب من الالهة فقد كانت ميزتهم الكبرى خلود العمر ... والجمال ... والشباب ...

وكانت الالهة اذا ما ملت محظياتها او محاظيها مسختهم مخلوقات اخرى واعادتهم الى الارض.

«ايوس» الهة الفجر

كانت ايوس او اوروارا الهة الفجر احدى الهات الاغريق الفاتنات. وكان من اكبر ما يعجب به الاغريق القدماء ويخلب لبهم التطلع صوب الشفق عند الفجر ليرقبوا ذلك المزيج الساحر من الاحمر والارجواني والوردي والبنفسجي الذي كانت تصطبغ به السماء قبل بزوغ الشمس. وكانت «ايوس» في معتقداتهم غادة شابة ذات جمال آخاذ تستقل عربة صغيرة وترفع بانامله الرشيقة مصراعي الشرق لتتهادى منه شمس الصباح مؤذنة بيوم جديد. وكانت (ايوس) فيما كانوا يعتقدون ترتدي قميصاً زاهياً تحت ثوب بنفسجي شفاف وعلى جبينها نجمة ساطعة وتقبض بكفها الصغير على شعلة متوهجة. وكانت (ايوس) في الوقت نفسه الهة الغسق فهي تأوى ايضاً عند المغيب الى قصرها المنيف المقام بالجزيرة المجهولة التي تسبح في لجة البحر الازرق الذي يقع غرباً. فاذا ما توسطت الشمس كبد السماء واشتد لهيبها لجأت (اوروا) الى الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء هرباً من اشعتها الوهاجة حتى اذا ما اذنت الشمس بالمغيب عادت (اوروا) ادراجها الى قصرها والنجمة المتلألئة تسطع في جبينها ثم تبكر في اليوم التالي لتمهد خلف ابواب الشرق لانبلاج فجر جديد.

وكان كثيراً ما يحلو لها ان تهبط بمركبتها الى الارض لتخطر بين عبادها المتيمين من البشر وتنثر الندى على وريقات الزرع والنبات والرياحين والازهار لتبعث فيها النشاط والحياة وتوزع في بشاشة تحية الصباح على من تقابلهم وتوقظ الطيور في افنانها.

وظلت (ايوس) خالية القلب من حب بني الانسان الى ان هامت يوماً ما بحب (تيتون) ابن ملك تروادة وشغفها ذلك الفتى حباً.

كان شاباً جميل الصورة مفتول الساعدين قوي العضلات وكان مغرماً بالفروسية والرقص والغناء وكان في الوقت نفسه قرة عين والده واهل قصره. ومن اللحظة الاولى التي وقع فيها بصر (تيتون) على الهة الفجر وهي تسير ذات صباح جذابة مشرقة يحف بها بهاء الالهة وعظمتها احس بقلبه يكاد يكف عن الخفقان ووقع في الحال صريع هواها. كما ان (اوروا) ما كادت ترى مظهر البطولة فيه حتى هامت به لتوها. وكف (تيتون) عن العابه وظل ينتظرها كل صباح بالقرب من ابواب القصر. قال لها ذات صباح بعد ان امضيا عدة ايام في سعادة وهناءة: «الا تودينني زوجاً لك» فاجابته بالقبول وصاحت به: «سنعيش معاً في جزيرتي المجهولة» فقال (تيتون) والاسى يملأ قلبه: «ساهرم واموت وسينقطع حبل سعادتنا بعد سنين قلائل» فقالت وهي: «ساهمة سأسأل «زوس» كبير الآلهة ان يمنحك الخلود» ومنحه (زوس) الخلود واصطحبته الالهة الى قصرها الجميل حيث خيل اليها لفرط حبها ان حياتها تنساب كمياه النهر الذهبي الذي يخترق الجزيرة المجهولة.

وقعت «اوروا» في نفس الخطأ الذي اعتادت ان تقع فيه الهة ذلك الوقت وغاب عنها ان تطلب لزوجها مع ما طلبت خلوداً آخر اعظم واجل هو خلود الشباب ومضت السنون ونعم العاشقان ببعضهما برهة من الزمن حتى اجتاز «تيتون» مرحلة الشباب وولت حيويته واصبح شيخاً مهدماً فانياً وخط الشيب شعر رأسه وضعفت ساقاه واصابه العمى ولم تبق

الشيخوخة منه سوى صوته . اما زوجته فظلت على شبابها جميلة بضة . كلما مضت السنون زادت ملاحتها وفتنتها وتجدد شبابها . واحتملت « اورورا » ما حدث لزوجها من تغيير ولكنها ضاقت به اخيراً ذرعاً وملت سماع صوته، وجأت الى كبير الالهة تريد ان ترفع عنه الخلود حتى يستريح ويريحها ولكنها عبثاً حاولت ذلك فمن نال الخلود لا يمكن بحال ان يموت . ولما كان لم يبق من «تيثون» كما قلنا غير صوته الحاد فهو دائم الثرثرة غير آبه ان كان هناك من يستمع الى احاديثه او من لا يستمع، فلم تر « ايوس » بداً من ان تحوله الى صرصور من صراصير الحقل ثم تعيده الى الارض .

لذلك يذكر من يعلم هذه الاسطورة « اورورا » إلآهة الفجر عنـــد ما يرى الشفق الذي يمثل قميصها القرمزي وثوبها البنفسجي كما يذكر ايضاً « تيثون » الجميل ذا العضلات المفتولة عند ما يسمع صرصوراً يغني في الحقول .

ديانا آلهة القمر

كانت ديانا إلآهة القمر عند الاغريق تعـد ايضاً الهة الصيد وكانوا يتصورونها مرتدية ثوباً قاتمـاً مسترسلاً ومتشحة بخمار شف فضفاض مرصع بالنجوم يهبط الى ما دون قدميها وعلى جبينها هلال براق. تلك كانت ملابسها كآلهة القمر، اما كالهة الصيد فلم تكن ديانا ترتدي اكثر من قميص بسيط قصير يكاد لا يصل الى ركبتيها حاملة بيدها قوساً من الفضة ويتدلى من نطاقها جعبة مشحونة بالسهام الفضية .

كانت ديانا فتاة رشيقة فارعة تعيش في سعادة وتقضي اوقاتها في اللهو والقنص والرقص مع قريباتها من الهة الغابات والبحار .

وكثيراً ما كانت تقضي سويعات هنيئة في رفقة اخيها التوأم « ابولون » اله الشمس ويشرفان من فوق شاطيء البحر على لجه المتلاطمة ويرقبان في سرور كر امواجه وفرها ومدها وجزرها . وفي احدى تلك الوقفات اشار « ابولون » الى جسم صغير اسود مستدير يطفو على بعد فوق سطح الماء وقال «اراهن انك لن تستطيعي ان تصيبي ذلك الشيء الذي يطفو فوق الماء» وكان « ابولون » الخبيث يعلم ان تلك الكرة السوداء الطافية لم تكن سوى رأس العملاق « اوريون » الذي منحه « نبتون » اله البحر القدرة على المكث في الماء واختراق عباب البحر يتبعه كلبه (سيروس) كما كان يعلم بشغف العملاق بشقيقته الشابة فدبت في صدره عقارب الغيرة ودفعته على ان يدخل على شقيقته تلك الحيلة فكثيراً ما كان يحز في نفسه ان يرى ذلك العملاق قادماً صوبها يمخر عباب البحر رافعاً رأسه ليمتع الطرف بجمال ديانا . ولم يخطر على بال ديانا عند ما تحداها « ابولون » ان ذلك الشيء المستدير انما هو رأس «اوريون» واثار هذا التحدي من اخيها حماسها فرفعت قوسها بعد ان اودعته سهماً من سهامها الفضية ثم اطلقته واستقر السهم في رأس « اوريون » ولم تعلم ديانا بما جنته يدها الا حينما قذف الموج تحت قدميها بجثة العملاق المسكين وما لبث كلبه الامين ان وصل الى جثة سيده يلعقها ويعوى عواء مراً . عندئذ حزنت « ديانا » وبلغ بها الحزن حداً جعلها تحول العملاق وسيفه ومنطقه وكلبه الى نجوم ساطعة في السماء قائلة : « اي سيروس لقد فقـــدت سيدك في الارض وستسكن معه في السماء » .

تبين لنا هذه القصة ما كان لديانا من سطوة ونفوذ . . .

وكانت ديانا تتميز عن غيرها من الآلهة بطيبة قلبها وحبها لخير عبادها من البشر والقصة التالية برهان ساطع على ذلك . فقد حدث مرة ان اقترف « اجمنون » ملك ارجوس وسيد ابطال الاغريق الذين حاصروا تروادة جرما في حق الالآهة « ديانا » وانتهك حرمة غاباتها المقدسة مصطاداً وعلا في احداها . واعلنه المنجم « كلخاس » بان « ديانا » لن تعفو عنـــه الا اذا ضحى بابنته «افجيني» واشفق الاب ان يذعن لرأيه ولكـــنه اضطر اخيراً للرضوخ لما شاءته الالهة خشية بأسها. وعندما حملت ابنته مغلولة مصفدة الى المذبح وكاد قلب ابيها يذوب حزناً عليها وشفقة، وعندما أبرق نصل السيف وكاد يمس جيدها . . . عند ذلك لم تحتمل «ديانا» ما كان على وشك الحدوث واشفقت ان تذهب تلك الغادة الجميلة ضحيتها فاخفتها فجأة عن عين جلادها اذ احاطتها بالضباب وحملتها الى مكان امين وبعثت بظبي ليضحي به بدل «افجيني» الا ان «ديانا» كانت في الوقت نفسه اذا ما رفعت راية العداء عدوة خطرة وخصماً عنيداً والقصة التالية تنبئنا بذلك .

كانت ذات يوم تستحم مع قريناتها من الالهات ذوات الحسن والجمال وجميعهن عاريات في لجة غدير صاف ينساب وسط غاباتها وبينما كن يعبثن تارة ويضحكن اخرى لمحت « ديانا » اوراق الاشجار التي تخفي ذلك الغدير تهتز وتتحرك .

فلما دققت النظر رأت وجه « اكتيون » الصياد الشاب يطل عليهم بعينيه البراقتين فثارت ثائرتها ورمته وهي تتميز غيظاً بحفنة من الماء ونهرته فهرب «اكتيون» واحس المسكين

بعد قليل بالشعر يكسو جسده ثم احس بقرنين ينموان في قمة رأسه وما لبث ان وجد نفسه يمشي على اربع ... ورأى لفرط دهشته ويأسه عند ما نظر الى نهر جار ان «ديانا» مسخته وعلا . وانكرت كلاب الصيد سيدها وبعد ان كانت اطوع له من بنانه لم تره الا وعلا فاندفعت في اثره تريد افتراسه ولم يجد الصياد التعس امامه طريقا لتجنبها سوى ان يعدو مـــا وسعه العدو ولكنها لحقت به اخيرا وقتلته شر قتلة .

وقد احاط صيادو الاغريق القدماء بعدها ذلك الغدير باجمة من الاشجار وكانوا عندما يمرون في تلك البقعة وتصل الى آذانهم جلبة «ديانا» ورفيقاتها ورنين ضحكاتهن يغضون الطرف ويتجنبون النظر

نبتون اله البحر

كان يقع على قمة جبال اوليمب قصر منيف مشيد من الذهب الابريز الا انه كان معظم الايام خاليا من قاطنيه وكان صاحبه لا يأوي اليه الا عند انعقاد مجلس الآلهة . كان صاحب ذلك القصر يقيم عادة في قصر آخر مشيد في قاع البحر يفوق الاول عظمة وفخامة وروعة وجلالا . كان ايضا من الذهب الخالص واسع الارجاء متعدد القاعات لانه كان يجمع احيانا بين جدرانه آلافا من الآلهة. وكان الرمل الابيض الناصع الممزوج بالاحجار الكريمة والعنبر واللالىء على شتى انواعها تكسو ارضيته، وتزين ارجاءه باركانه غياض واجمات من المرجان وصخور شفافة من البلور الثمين . وكانت تحيط به بساتين فيحاء ورياض غنـــاء قوامها زهور الاقحوان وشقائق النعمان وشتى انواع الرياحين والازهار ذات الالوان النادرة .

كان سيد هذا القصر المطاع هو « نبتون » اله البحر . فهو مأواه وقلعته المنيعة يدين له كل من فيه بالطاعة العميـــــاء. كما كان مقر حكمه يشرف منه على شئون مملكته ويسيطر على كل كائن من كائنات البحار ومعه زوجته « امفتريت» وولدهما « تريتون » وكان « نبتون » لا يتخلى لحظة عن الشوكة ذات الثلاثة اسنان فهو دائما يحملها فان شاء حركها في قاع البحر فسبب الزوابع والعواصف الهوجاء . وان شاء زلزل بها الارض وان شاء ايضا اثار بها البراكين فقذفت بجزر جديدة وسط البحر يحلو له احيانا ان يخرج الى اليابسة ويغرز تلك الشوكة فيظهر في موضعها غدير او بحر .

وكان الاغريق القدماء اذا ما رأوا البحر هائجا والسفن تتراقص بين زبده ايقنوا ان آلهم نبتون في ثورة غضبه . اما اذا سكن البحر وعادت اليه زرقته اعتقدوا ان آلهم قد هدأت ثورته وغدا في حالة نفسية طيبة وكانوا عندما تنعكس الوان الشفق الزاهية ساعة المغيب على البحر يقولون ان « نبتون » قد استقل مركبته اللؤلؤية التي تجرها الجياد البحرية المطهمة ذات الشعور العسجدية والتي يتقدمها جحافل من جنيات البحر تجري وتقفز بين الامواج يتوسطها ابنه « تريتون » وهو ينفخ في بوق من الصدف محدثا صوتا هو هدير الامواج اذا مـا تكسرت على الصخور .

كان نصف « تريتون » الاعلى على شكل انســـان ونصفه الاسفل على شكل سمكة وكان كثيرا ما يعجبه ان يجوب البحار سابحا على ظهر تنين .

اما امه « امفتريت » زوجة « نبتون » فقد كانت احدى جنيات المحيط تزوجها « نبتون » لفرط جمالها . فقد كان كمعظم الهة ذلك الوقت مغرماً بالنساء وهام حبا بفتاة تدعى « سيلا » نحز ذلك في نفس « امفتريت » زوجته واشعل في صدرهـــا لواعج الحنق والغيرة . ودفعتها غيرتها الى ان تلقي ببعض الاعشاب السحرية في غدير كانت « سيلا » تستحم فيه فانقلبت المسكينة مخلوقاً عجيباً كريه المنظر .

ولما كان اكثر ما اعجب «نبتون» في معشوقته « سيلا » رقة قدميها وصغر حجميهما فقد قضت عليها « امفتريت » عندما مسختها تلك المسخة بان يكون لها اثنتي عشرة قدماً كبيرة الحجم . ولما كان « نبتون » كثيراً ما اشاد بجمال جيدها العاجي فحولت « امفتريت » الغيورة رقبتها الى ست رقاب طويلة عجفاء تحمل كل منها رأساً قبيحة . كذلك كان نبتون متيما بصوتها العذب الرخيم وخجلت « سيلا » اذ رأت نفسها على ذلك القبح وولت صوب كهف في قمة صخرة عالية واخفت نفسها عن الانظار . وما زالت تلك الصخرة حتى الان بارزة وسط مضيق مسينا ويدعونها رأس «سيلا» . وفقدت « سيلا » مع جمالها عذوبتها ورقتها وانقلبت وحشا ضاريا يطبق على السفن التي تمخر عباب البحر فتبتلع مرة واحدة بافواهها الستة ستة من ملاحي تلك السفن . وكان الاغريق القدماء يعللون فقد كثير من البحارة في مضيق مسينا بان « سيلا » تبتلعهم على تلك الصورة . وما زال ذلك الممر الى يومنا هذا خطراً على الملاحة الا اننا نعلل الآن هذا الامر لكثرة الصخور والتيارات البحرية العكسية في تلك المنطقة . وعندما تشاجر « نبتون » مع الالهة « اثينا » واشتد

بينهما الخلاف على تسمية احدى المدن، كل منهما يريد ان يطلق عليها اسمه، احتكما الى مجلس الآلهة فقرر هذا ان من يهب منهما الجنس البشري هبة قيمة ذات نفع اطلق اسمه على تلك المدينة فاهدى «نبتون» الحصان الى الانسان اما «اتينا» فقد اهدته شجرة الزيتون. وانتصرت الالهة لاتينا وفضلت هديتها لان غصن الزيتون رمز الخير والسلام اما الحصان فهو رمز الحرب والدمار واطلق على المدينة اسم «اتينا» وعاد «نبتون» الى قصره غاضباً بعد ان صب لعنته على مدينة اتينا متنبئاً لها بانها لن تزدهر يوماً، ولكن نبوءته خابت واصبحت مدينة اتينا اعظم مدن العالم في ذلك العصر.

ابولون آله الشمس

كان ابولون اله الشمس اخاً توأماً «لديانا» الهة القمر وعندما كانا صغيرين اضطهدت «هورا» زوجة «زوس» اب الآلهة امهما اضطهاداً وحشياً فاضطرت ان تهرب من مكان الى مكان مصطحبة معها ولديها. عند ذلك اشفقت عليها «تمِس» الهة العدل وطلبت منها ابنها «ابولون» لتقوم بنفسها على تربيته. واخذت «تمِس» الطفل ودثرته باثواب من الدمقس والحرير وسقته شراب الالهة الكوثري. وما كادت تسقيه من هذا الشراب حتى دبت في جسد الطفل الصغير حيوية عجيبة. ولم تصدق «تمِس» عينيها اذ رأته يلقي عنه لفائفه الدمقسية ثم يقفز واقفاً على قدميه وينمو في طرفة عين فيصبح صبياً يافعاً ثم يتحول في الحال شاباً قوياً جميل الصورة ذا عينين ذات زرقة قاتمة وشعر اشقر مسترسل ومحيا جذاب ساحر تشع منه الحياة والصحة ثم انبرى لها قائلاً: «الي بقوس وقيثارة وساجد في الاول نعم الرفيق وساعزف على الثانية اعذب الالحان»

وعندما اصطحب معه قيثارته موليا شطر جبال اوليمب مقر الالهة اعجبوا به جميعا واستقبلوه بسرور وترحاب وعهدوا اليه مركبة الشمس

وكان الاغريق القدماء يعتقدون ان الشمس ما هي الا مركبة ذهبية تبدأ سيرها في الصباح وهي تشق كبد السماء من الشرق الى الغرب. فسمي «ابولون» اذ كلف من الالهة بقيادة تلك المركبة اله الشمس. ولما كان لا يحلو للطيور ان تغرد وتشدو باعذب الحانها واشجى اناشيدها الا عند الصباح المبكر قبيل ان يصل «ابولون» بمركبته فقد سموه ايضا اله الموسيقى وكان ايضا اله الطب لان حكماء الاغريق الاقدمين كانوا يعرفون كما نعرف الآن ان اشعة الشمس تشفي كثيراً من العلل.

الا ان الاغريق كانوا يفضلون ان يدعوه باول القابه اي اله الشمس وكان ابولون كثيراً ما يحلو له ان يهبط من حالق فيجوب الغابات والحقول وهو يعزف على قيثارته الذهبية بانغامه الساحرة

ويوم قتل «ابولون» الثعبان الضخم «بيتون» الذي كان يروع الناس في جبل برناس قروناً عديدة اعترف الاغريق بجميله واقاموا له في تلك البقعة معبداً يقدمون فيه الى اله الشمس قرابينهم وهداياهم.

ورغم ان «ابولون» كان يضرب الرقم القياسي بين غيره من الالهة في الحصول على القرابين والهدايا الا انه لم يكن دائما موفقا فقد حدث يوما ان اثار كيوبيد اله الحب بان سخر منه مرة فغضب «كيوبيد» وتوعده بالانتقام. وطار لتوه الى قمة جبل برناس واودع قوسه سهمين من جعبته احدهما من الذهب يوحي بالحب والاخر بالرصاص يوحي بالحقد والبغضاء، ورشق بالاول قلب «ابولون» والثاني قلب [illegible] دفنيه» ذات الجمال الخلاب.
[illegible] ـلال الاشجار مرت امامه
«دفـ [illegible] ولكن الحقد والبغضاء
اللذي [illegible] ـلاها تنفر من «ابولون»
وتو [illegible] ابولون» لم يكن يعجز
عن [illegible] باعذب الالفاظ ومناجيا
لها با [illegible] ـسل اليها كلما ازدادت
نفور [illegible] ـب قوسين او ادنى منها
تسار [illegible] ابولون» واحتوى جسدها
الصغير بين ذراعيه محاولا ان يضمها الى صدره في شغف وهيام فاضطرت ان تستنجد «بنيه» اله الانهار صائحة باعلى صوتها وهي ترتعد نفوراً من «ابولون» أي «بنيه» يا ابتي المبجل اني الوذ بك فانقذني انقذني.

وما كادت تأتي على جملتها حتى تسمرت قدماها بالارض وتحول قوامها الاهيف الى جذع شجرة وانقلب شعرها المتطاير وذوائبها المسترسلة الى فروع واوراق. ولم يمكن بذلك «بنيه» ابولون منها ومسخها شجرة من اشجار الغار واحاط ابولون رأسه ببعض اوراق من تلك الشجرة ونذر ان لا يتخلى عنها الى الابد ونفث فيها من لدنه وميزها من غيرها من الاشجار فهي الى يومنا هذا لا تتساقط اوراقها في الخريف او الشتاء بل تبقى على الدوام خضراء يانعة.

القاهرة — عمر عزت

الى ظهر ريفي

☆

لفؤاد الخشن

من اسرة الجبل الملهم

•

فنزويلا

☆

ايها الظهرُ تسمَّرْ
وتقطَّر
لهباً في الريف يُنثر
ذوبَ صمتٍ وفناءْ
فلظى خمركَ اشهى
ليَ من خمر المساء !

أتوع الزهر اوارا
وانسكب في السفح نارا
وازرع السهل سرابْ !!
سكرتْ من حرّكَ الان الصخورْ
وفراشٌ كان في الفجر يدور
فوق افواه الزهور !
وتراخى النهر وانسلّ الخدر
منك في عرق الحجَر !

شرب السنبلُ من شمسك
كاسا
فانتشى لحناً وحسًّا
والصنوبرْ
راح من دفئك يسكر
ويمدّ الارض ظلا
ناعم اللمسات اخضر !

خبتِ الشهوة في نفس العناكب
لدمٍ ينبض في قلب الذباب
والجنادب
لم يعد فيها لحب القفز رغبه
فهي بالديدان اشبه !!
ومضى الراعي الى ذاك الغدير
ينفخ الاشواق في مزماره لحناً مثير
فاذا الابقار في حلم ثقيل
وجفون الزهر اغفاءٌ طويل
وفم النور انتشاء !

الغنائية العربية بين الشعر والتاريخ

بقلم نسيم نصر



الغنائية* في اللغة ، ما طرب به الصوت ، والغناء في مفاهيم الادب يمتد الى تأدية معنى التغني .

والتغني بمعناه الجامع ، ترجمة عن احاسيس النفس وخلجات القلب ونزواته في سائر حالات الانسان الشاعر من طمأنينة وقلق ، وحب وكراهية ، وبهجة وحزن ، وتقدير وازدراء ... الى آخر هذه السلسلة من المزدوجات المتناقضة التي تعبر عنها اللغة ، في قوالب الانشاء وقوافي الشعر غالباً .

والانسان ، منذ استطاع التعبير بالحرف عما يريده ، وعما يجيش في صدره ، وقف امام طريقين منفصلتين متصلتين : طريق العقل وطريق العاطفة . باعدت ما بينهما بدائية الانعكاسات الذاتية فقامت تصل غايتيهما المعرفة المترافقة لتدميث النزوات وترويض الانطلاقات الابداعية .

فالانسان اذن ، قبل تفتح مداركه بالتجارب والاختبار وثورات الفكر ، بديهي المسالك غريزي الميول : لذلك كان لا بد للعاطفة من ان تسبق العقل في طريقها الى البروز وترك طابعها الاصيل على طلائع الحرف المعبر .

والعرب ، بعرقيتهم السامية وبداوتهم القديمة الغالبة وموثرات الحياة البدائية التي عاشوها ، صهرتهم حرارة العاطفة قبل ان ينور لهم مصباح العقل . وليسوا في هذا الانصهار ، غير جماعات من ابكار الشعوب ، الذين اهلت بهم اصقاع العالم القديم ، في فجر التاريخ ، وفي ما قبل التاريخ بوجه الترجيح .

وانساقت للعرب ، بحكم الطغيان الشعوري والعيش الطبيعي ، صفات من متناقضات الحياة البدوية : فعرفوا مثلا التضحية في الضيافة وكرم الجوار ونقضوها باثرة الغزو والسلب والثأر فاخذت لغتهم ، في تعبيرها عن هذه وتلك ، تنطبع بغناء شعري احكموه فتوارثوه فذهبوا في وجوهه كل مذهب .

ولما كان التاريخ ميدانا لمسالك العقل المنزه عن الهوى ، الباني على الدروس والعبرة ، ولما كان العرب ، في مستهل ما خلفوه من منظومهم ، يقودهم الهوى الجامح وتتقاذفهم مهاوي الارتجال عند منشدوهم الى المباهاة بايامهم واخبارهم واحداثهم في شعر تغلغلت فيه الفردية مرة والعصبية القبلية اخرى ، فجاء محدود الخيال قصير مدى الانطلاقة من جهة ، وبدا زائف التاريخ والرواية من جهة ثانية .

وفي الجاهلية الرثنية ، خرج طغيان الفردية المتزعمة عن حدود المعقول حتى زعمت لجسدها دما ممتازاً اشرف من دماء سائر الناس ، وبقي زعمها ذلك قائماً كحقيقة الى ان جاء الاسلام ، فعلم : ان الناس من آدم وآدم من تراب ، فلا تعظم بالدم .

والفرد المتزعم ، في الجاهلية ، كان غالباً ، شاعراً او فارساً او كليهما معا ، فكان من البديهي اذن ان يتسم الشعر الجاهلي بطابع المغالاة ، تفيض بها النفس مما يجيش فيها من مقومات الفطرة المنعزلة .

وعلى الرغم من ان الشاعر آنذاك كان لا يتماسك في وحدة موضوع ، الا نادراً ، ولا يحكم من الوصف الا الحسي ، ولا يسمو الى حكمة الا في نطاق الاختبار الشخصي المائل الى السذاجة المفتقرة الى نبض الحياة ، فانك لتجد ذلك الشاعر نفسه موفور الكرامة عزيز المنزلة مقدس الرأي حتى قال فيه احد المستشرقين : « الشاعر نبي القبيلة وزعيمها ، في السلم ، وبطلها في الحرب ، تطلب الرأي عنده ، في البحث عن مراتع جديدة وبكلمته وحدها تضرب الخيام وتحل ، كما كان يحدو الرحالة

* حديث اذيع من محطة اذاعة بيروت

العطشى في التنقيب عن الماء ...

واذا نحن اضفنا الى قدر الشاعر الجاهلي هذا ، اعتقاد العرب الساميين ، القائل : بوجود شيطان لكل شاعر كبير يوحي اليه بالشعر ، تيسر لنا ان نفهم ان انطلاقة الشاعر العربي ، من عقال الواقع ، الى بعض اجواء البدائع والغرائب ، لم تكن كافية لتفتح له آفاق الملحمة . وكيف تنفسح له تلك الآفاق ، وهو مضطر الى جعل منظومه جزءا من ديوان تزدحم فيه الحوادث : كبيرها وصغيرها ، صادقها وكاذبها ؟؟!!

ولو جعلنا من الشعر والتاريخ ، في العصر الجاهلي ، كفتي ميزان . وألقينا في الواحدة منها القدر الشعري وفي الثانية القدر التاريخي ، لرأينا تراوح الرجحان باديا ، على الرغم من التواطؤ الموروث على ان ذلك التراث شعر وحسب .

ففي شعر امرىء القيس سجل من المعلومات التاريخية والجغرافية ايضا . نستطلع منها وجوه سياسة عصره وما كان من تنازع سلطان بين الروم والفرس ، وما صارت اليه دولة كندة . وفيه اشارات الى بعض نواحي المجتمع العربي ولاسيما الارستقراطي ، وفيه عرض لاسباب اللهو والترف والصيد آنذاك ، وفيه بروز لمعالم الفساد في تلك النظم لانتشار الجهل وفقدان الاسس الثقافية وانعدام المجتمع في معناه الاصيل .

وفي شعر سائر اصحاب المعلقات وسواهم من مشاهير شعراء العصر الجاهلي وجوه لتلك الموازنة بين الشعر والتاريخ ، ان تباينت متناولاتها عرضا وقدرا ، فانها لا تختلف من حيث التراوح شعراً وتاريخا .

فهو شعر تطغى عليه الغنائية وان زينه الخيال او دعمته الفكرة ، وهو تاريخ وان خلطه الكثير من زيف الواقع فالتبست فيه حقيقة التاريخ .

ولكي يكون القصد المعني بكلمة تاريخ اقرب الى التعبير الحديث في تسجيل الماضي ، نقول : ان الكثرة من قدامى شعراء العرب كانوا تراجمة افراد اكثر منهم مؤرخي جماعات ومعلني مفاخر قبيلة ، في منظوم فيه من الغلو ما يطل على الملحمة ، ولكن لينكفىء عنها قصير النفس مجتزأ الخيال ، كقول ابن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق عنا   وظهر البحر نملأه سفينا
اذا بلغ الفطام لنا صبي   تخر له الجبابر ساجدينا

وشعر النابغة الذبياني فيه المامات كثيرة بالقصة تفتح مجالا للقول بالخروج عن الغنائية احياناً ، ولكنه خروج لا يلبث ان يتضح انه لا يعدو استغلال فن القصة واستخدامه وسيلة للمدح او الاعتذار او غير ذلك من مسالك الغنائية ، الموشاة بالتنويع كقوله في جيش الغساسنة الزاحف الى الغزو :

اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدي بعصائب

او كقوله في مدح النعمان :

ولا ارى فاعلا في الناس يشبهه   ولا احاشي من الاقوام من احد
الا سليمان اذ قال الاله له   قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن اني قد اذنت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد

ولغير النابغة المامات بشعر القصة ، فعدي بن زيد تناول حكاية الحية وخديعتها حواء وآدم ، وامية بن ابي الصلت نظم قصة لوط وخراب سدوم ، وهمة ابرهيم بتضحية اسحق .

اما الشاعر الجاهلي الذي يبدو انه خرج عن التغني بآلام نفسه ولواعج صدره الى خوارق ملحمية مبددة هنا وهناك ، في شعره فهو عنترة العبسي . ولكنها خوارق تغلب السذاجة عليها ، وغايتها الاولى الارتفاع الى مقام عبلة ، حبيبته ، والثانية اسكات الحساد والمعيرين . فاسمعه يقول :

ان كنت في عدد العبيد فهمتي   فوق الثريا والسماك الاعزل
وبذابلي ومهندي نلت العلى   لا بالقرابة والعديد الاجزل

وعلى الرغم من ان عنترة سما الى بعض توثب الملحمة وتدافع لفظها ، في مثل قوله :

والخيل تعلم والفوارس انني   فرقت جمعهم بضربة فيصل

فعاطفته لا تفارق حماسته ، حتى في اسمى شعره ، كقوله :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

لذلك يصح القول بان شعر عنترة غنائية يتنزى فيها الحر المغبون ، المحكوم عليه بالرق لان لونه اسود ولان امه سبية . فهذا النوع من الشعر معرض لاعظم حيف اجتماعي ينكره الانسان ، وهو تصنيف الناس منسوبين الى لونهم ومولدهم .

ولئن كنت قد اطلت الكلام عن الجاهلية ، نسبياً في هذا الحديث المقتضب ، فلان شعراء العرب استمروا اجيالا طويلة ينظرون الى تقدمهم في ادب السلف نظرتهم الى اساتذة عنهم يأخذون وبهم يقتدون .

وهذا الشاعر الاموي استطاع ان يكون رجل دولة ولسان حزب ونصير رأي ، ولكنه لم يقو على ان ينفك عنه

حلاق للسيدات

بقلم محمود البدوي

☆

كان ميخاليدس حلاقاً يونانيا مشهوراً في شارع سليمان باشا . وكان حانوته ملتقى السيدات المصريات والاجنبيات الانيقات في المجتمع . فمن الساعة السادسة بعد الظهر لا تجد في محله كرسياً خالياً .. وغالباً ما تجد سيدة او اكثر جالسة في مدخل الحانوت في انتظاردورها وتصافح انفك وانت مار من هذا الشارع وعلى بعد عشرين خطوة من الحانوت رائحة العطور الآبقة .. وتسمع حوار السيدات الممتع . وحركة المراوح الكهربائية .. وصوت آلات التجميل تصلح ما افسد الدهر .. وترى السيدات يخرجن من «الصالون» الى المراقص والملاهي الليلية وهن يبهرهن الابصار

وكانت زينات هانم من « زبائن » هذا الحلاق الدائمات ! كانت تأتي اليه مرتين في الاسبوع على الاقل لتتزين . وكانت من اثرياء السيدات وزوجها عضو مجلس ادارة في اكبر بنك في المدينة . . وفي اربع شركات كبرى . . مع انه لا يتمتع بذهن اقتصادي ولا بعقل جبار .. ولا بشيء يؤهله لهذه المناصب وليس هناك من فارق في الفهم ومقدار الادراك بينه وبين الفراش الواقف على باب مكتبه . . ولكن هكذا تجري الحظوظ والاقدار . .

وكانت زينات هانم قد تجاوزت سن الاربعين بكثير واقتربت من سن اليأس عند المرأة . وفي هذه السن تبدو المرأة عصبية قلقة مضطربة . ولهذا كانت تذهب الى الحلاق وتجلس على الكرسي الضخم .. وهي في اشد حالات القلق والتوتر العصبي .

وكان صاحب المحل يستقبلها مرحبا حانيا ظهره مقدما اليها احسن عماله . . ولكنها كانت تستقبل العامل المسكين بوجه عابس واذا فرغ من «التسريحة» ولاحظت انها لا توافق مزاجها

القيد الذي يشده الى متقدميه ولا على ان يقطع الصلة التي تربطه باوتاد البداوة . ولنا بالاخطل التغلبي ، شاعر بني امية ومحامي عرشهم خير شاهد على ذلك ،فقد ازدادت معانيه عمقاً ، ولكنها بقيت حسية وثيقة الصلة بمثلها في الجاهلية .

ولم ينفرد الشعر الاموي بروح جديدة الا من حيث الشعر بالعزة الدولية والسيادة العربية ، بعد قيام عرش الامويين ، تلك الروح التي كثيراً ما كلفتها السياسة خدمة مآربها والدفاع عن احزابها ضد المناوئين في الخارج وفي الداخل ، حتى كانت للشاعر مسكين الكلمة الاولى في اعلان انتقال الخلافة العربية بالوراثة بعد ان كان تعاقبها شورى .

وهكذا اخذت الناحية التاريخية طريقها الى الوضوح والاشتمال على شؤون حرية بالاعتبار ، بعد الخروج من الوثنية الى التوحيد ، ومن الحكم القبلي الى نظام الدولة ، ومن البداوة الى الاخذ باسباب الحضارة . وليست متناقضات المثلث الاموي الاخطل وجرير والفرزدق ، واهاجي طوائف من شعراء الاحزاب والعصبيات غير مجمل لتاريخ تلك الحقبة من دهر العرب .

ولولا ما خالط ذلك المجمل من الغلو لصلح اكثره مصادر تاريخ ، ولكن انّى له ان يعتمد مصادر صادقة وشعر العرب كان ينسج غالباً على قول : « اعذب الشعر اكذبه !؟ »

واستمرت هذه حال الشعر حتى كانت العصور العباسية ، فاغترف شعراؤها من معين العلم والفلسفة وحلقوا الى ذرى الفن التعبيري ، ولكنهم ظلوا يعيشون في اكتاف تنحرف بهم عن اهداف الشعر المتحرر من كل قيد ، فلم يستطيعوا ان ينطلقوا مجددين في كل ما يريدون ، فبقي نطاق الغنائية محدقاً بهم . وان لم يكن ذلك النطاق ضيقاً كما كان في الجاهلية وصدر الاسلام ، فانه ، على كل حال ، حد من حماستهم وابداعهم الخيالي .

وهكذا يتضح لنا من هذه النظرة العابرة ان الغنائية العربية ظلت عصوراً طويلة تصل اسباب الشعر بملامح التاريخ ، فالفت خزانة ، ادب ، ان عابها العجز عن روائع الابداع ، فقد زانتها القدرة على سمو الايقاع ، واغناها ما فيها من منابع الانتفاع .

وتحاول النهضة الحديثة ان تمهد للشعر العربي اسباب الانعتاق الى اجواء الحماسة ومراقي التماسك القصصي لتتوفر للعربية ثروة الملحمة الى جانب ارث الغناء ، فتسمو بذلك مكانتها بين الآداب العالمية الجديرة بالبقاء ؟ ؟ !

نسيم نصر

واستدارة وجهها نظرت اليه شزرا واخذت تسبه . وكان صاحب المحل يستقبل هذا السباب دائماً بابتسامة من فمه وانحناءة من رأسه . ويجلسها على كرسي آخر ويتولى بنفسه اصلاح الامور . فقد كانت زينات هانم من كرام السيدات ومن احسن عملائه .

وذات يوم جاءت كعادتها وكان في المحل عامل جديد وهو شاب في السادسة والعشرين من عمره قوي الجسم بادي الصحة وجلست على الكرسي ونظرت اليه .. وازاح شعرها الى الوراء وابتدأ يعمل .

وكان من عادتها ان تحرك رأسها يميناً وشمالا اثناء الحلاقة ولا يجرؤ واحد من العمال ان يلفت نظرها الى ضرر ذلك . ولكن هذا العامل لفت نظرها بصوت قوي . . فامسكت رأسها كأنها تمثال .. وشعرت بانامله وهي تمسح على شعرها ورأت وجهه في المرآة امامها فنظرت اليه وصمتت ، وظلت وادعة ساكنة حتى فرغ من الحلاقة . فنظرت اليه مبتسمة ممتنة .

وفي طريقها الى الخارج وضعت في يده ورقة من ذات العشرة قروش فتناولها شاكراً .

وفي اليوم التالي جاءت لتتزين وكان العامل الجديد مشغولا . فانتظرته الى ان فرغ من عمله واستقبلته باسمة .. وكانت اكثر هدوءاً واشد وداعة !

واغلقت عينيها وسبحت في عالم الاحلام اكثر من مرة وانامل حسن تجري في شعرها !

ولما انتهى من عمله ناولته ورقة اخرى فانحنى شاكراً .

...

وذات يوم دق جرس التليفون عند الحلاق . وسمع ميخاليدس صوت زينات هانم .. وهي تقول بصوت ناعم :

« تسمح ترسل لي حسن بكرة الساعة خمسة في البيت ... اذ انا ذاهبة الى حفلة خيرية .. وليس عندي وقت اجيء عندك . »

« حاضر يا هانم ... »

ووضع ميخاليدس السماعة . وكتب في دفتر مذكراته شيئاً

...

. وفي الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي ، وقف حسن على باب السيدة زينات هانم وقرع الجرس ، وفتحت له خادم انيقة الباب وقادته الى الداخل .

وجلس صامتاً مأخوذاً بما حوله من رياش وتحف .

وبعد قليل جاءت السيدة وادخلته غرفة زينتها .

وحلت شعرها وجلست امام المرآة الكبيرة ... واخذ حسن يمشط هذا الشعر في عناية ودقة . وانامله تجري وراء المشط . واستراحت زينات لعمله . وشعرت بحواسها تتخدر .. ثم اغلقت عينيها وراحت في حلم ممتع . وبعد فترة طويلة سألته في رقة ..

— مسرور عند ميخاليدس ..؟

— اجل ..

— ان كنت تريد شيئاً قل لي .. ؟

— مرسي يا هانم ..

— متزوج ..؟

— لا .. يا هانم ..

— ولماذا .. لا .. ؟

— . . . . .

— خائف .. من النساء .. ؟

— . . . . .

وصمت حسن وانهمك في عمله .

فصمتت . ثم رآها في المرآة وهي تديم النظر اليه في سكون فاخذ يوجل شعرها وقد غض من طرفه ..

وتركته في شأنه واغلقت عينيها وسبحت بها الاحلام واقبلت بها المناظر الممتعة وادبرت .. وتصورته مرة يلثم شعرها . واخرى يقبل عنقها من الخلف . ومرة اخرى ينحني بكليته عليها فترفع وجهها اليه وتعطيه شفتيها .

واستفاقت من حلمها على صوته وهو يغلق حقيبته .

فقالت في اسف .

— خلاص ... ؟

— خلاص يا هانم . .

ونهضت عن كرسيها .. ومشت معه نحو باب الحجرة . . وعز عليها ان يتركها هكذا سريعا فتوقفت لحظة عند الباب ومدت اليه يدها فامسك بها في راحته وانحنى ليصافحها . . فرفعتها في حركة سريعة دون وعي منها الى شفتيه والصقتها بهما .

ورفع رأسه ونظر الى عينيها ورآهما تبتسم في اغراء وفتنة .. فانحنى ليقبل يدها مرة اخرى ..

فمالت عليه واعطته ثغرها .. و

القاهرة　　　　محمود البدوي

كتابة التاريخ

بقلم سليمان موسى

☆

نحن نقرأ احيانا ان هذه الحكومة او تلك من حكومات العالم اوعزت الى مصنفي كتب التاريخ المدرسية فيها ان يعيدوا النظر في تلك الكتب ويؤلفوها بحيث تتفق مع فلسفة الحكم القائم فيها ، وقد يأتي ذلك التعديل المطلوب ببعض الحقائق التاريخية ويغفل بعضها. وقد يأتي بالحقيقة كلها او انه قد يشوه وجه الحقيقة حتى يكاد يقضي على معالمها الاصلية كما حدث ان شوهت النازية في كتبها كثيراً من حوادث التاريخ في محاولتها وضع العنصر الجرماني في المنزلة الاولى بين شعوب العالم .

والمفهوم بديهة ان التاريخ هو قصة الحوادث التي تجري على مسرح عالمنا هذا بما فيها من مآس ومهازل . والمنتظر في هذه الحالة ان تنقل تلك القصة بامانة وتدقيق لكي تعطي للاجيال اللاحقة صورة واقعية لماجريات الحوادث . ولكن من المؤسف حقاً ان معظم كتب التاريخ لا تعطي تلك الصورة الصحيحة المثلى وانما نرى فيها تهويلاً في هذه الفصول وتصغيراً في تلك مما لا يستقيم مع المنطق العلمي ولا مع الحقيقة المجردة .

واول ما يحضرني في هذا الشأن تجني كتب التاريخ التي وضعها الاوربيون والاميركيون بعدهم ايضاً ليس على تاريخ الامة العربية فحسب وانما على تاريخ شعوب الشرق عامة ،وقد يتصفح القاريء تلك الكتب فيرى انها تتحدث عن اليونان والرومان في العصور القديمة باسهاب ليس بعده من اسهاب ، ويرى انها تتحدث عن المصريين والبابليين باقتضاب ما بعده من اقتضاب ، بل ان حظ المصريين واهل بابل يكاد يكون عظيما اذا ما قسناه بحظ الصينيين والهنود والفرس بالرغم من حضاراتهم العريقة .

لنأخذ مثلاً : كتاب العصور القديمة تاليف براستد وهو الذي يدرس في مدارسنا وفي مدارس بلاد كثيرة غيرنا . لقد اتسع مجال القول لدى مؤلفه عن الامبراطورية الرومانية حتى جاوز مئة صفحة بينما لم يتسع لديه المجال عند ما تحدث عن هجرة الرسول العربي وعن جميع فتوحات العرب من حدود الصين الى جبال البرانس فلخص ذلك التاريخ الضخم في اربع صفحات لا تزيد . واني ارى في هذا افتئاتاً على العلم وعلى حقائق التاريخ نفسه ، واحسب ان العاطفة لا تتملكني عندما اقول : ان اثار الهجرة الاسلامية والفتوحات العربية فاقت الى حد بعيد اثار الامبراطورية الرومانية ، فلماذا اذن يتحدث ذلك المؤرخ باسهاب عن اوغسطس واو كتافيوس وعن انظمة الرومان وقوانينهم ولا نجد ما يقوله عن عمر بن الخطاب او الوليد بن عبد الملك او هارون الرشيد . ان المرجع الواضح في هذا الشان هو ان الاجيال الاوربية الحديثة توارثت حضارة الرومان ومن قبلها حضارة اليونان فدرست تلك الحضارات ونشأت على تمجيدها بينما لم ترث الحضارات العالمية المجيدة الاخرى فلم تكلف نفسها عناء دراستها وساعدت امجاد اوربا الصناعية على الاقلال من شأن تلك الحضارات وعدم الاهتمام الحقيقي بها .

لنتأمل ايضاً تقسيم العصور التاريخية كما شاءت العقول الادبية ان تفصّله وتتفق عليه ، فقد جعلوا العصور القديمة تنتهي بسقوط الامبراطورية الرومانية وجعلوا العصور الوسطى تنتهي بسقوط القسطنطينية وما جرهم الى هذا سوى تعصبهم الاعمى لقاراتهم وللشعوب القاطنة فيها . لماذا لم يجعلوا مثلاً : سقوط الامبراطورية الفارسية على يد الاسكندر المقدوني نهاية للعصور القديمة ولماذا لم يجعلوا العصور الوسطى تنتهي بهجرة النبي العربي . ان سقوط القسطنطينية لم يكن حادثاً هاما من احداث التاريخ لان القسطنطينية فقدت اهميتها قبل سقوطها باعوام كثيرة بل

اكاد اقول انها فقدت اهميتها منذ ان حاصرت اسوارها جيوش العرب زمن معاوية بن ابي سفيان وزمن سليمان بن عبد الملك بينما كانت الهجرة حدثاً من اعظم احداث العالم التي غيرت معالم التاريخ تغيراً واضحاً ملموساً .

ومعركة بواتييه في جنوبي فرنسا بين عبد الرحمن الغافقي وشارل مارتل ، لقد اعتبرها مؤرخو الافرنج من المعارك الفاصلة في التاريخ وقالوا ان مارتل خلص اوربا من الغزو العربي بينما لم تحض هذه المعركة بسوى عناية بسيطة من مؤرخي العرب لا لغفلة فيهم ولكن لان تلك المعركة كانت نتيجة لغزوة من الغزوات الكثيرة التي كان يشنها ولاة الاندلس على جنوبي فرنسا تأديباً للعصابات التي كانت تكمن في جبالها وتغير غارات مفاجئة على الاراضي الاندلسية . ولو كان في نية العرب غزو اوربا على نطاق واسع وبصورة جدية لجهزوا الجيوش الجرارة وقاموا باعظم الاستعدادات في سبيل ذلك مما كان في مقدورهم وفي حدود امكانياتهم العظيمة . وغرض مؤرخي الافرنج من وراء ذلك التهويل واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو احاطة مارتل بهالة من المجد العسكري وتصويره للاجيال الاوربية اللاحقة بصورة البطل الذي هزم العرب وانقذ اوربا وصنع التاريخ

واعتقد ان الذي حدا بمؤرخي اوربا الى اتخاذ هذا الموقف هو ان اوربا خلال القرون الثلاثة الاخيرة كانت تحتل مكان الزعامة بين القارات كلها بسبب النهضة الصناعية التي قامت فيها والقوة التي تجمعت لدى شعوبها نتيجة لتقدم تلك الصناعات . وقد نشأ اولئك المؤرخون في غمرة تلك الاحداث وتطلعوا الى بقية شعوب العالم فرأوها تغط في سبات الجهل والجمود فصنفوا كتبهم وهم تحت تاثير تلك المشاعر المتميزة دون ان يبذلوا جهداً في تمحيص حقائق التاريخ وتصوير فصوله بالعدالة والامانة الضروريتين جداً لمن يتصدون لموضوع هام كهذا الموضوع .

ولا يغرب عن الذهن ان التحيز في كتابة التاريخ وتشويه الحقائق تؤثر تاثيراً سيئاً في نفوس القراء وخاصة في نفوس تلامذة المدارس اذ ان التحيز لم يقف عند ما قدمنا ولكن الانجليز اجمالاً تحيزوا في كتابة تاريخ انجلترا وفعل كذلك الفرنسيون والالمان والروس وغيرهم من شعوب العالم ونتيجة لذلك نشأ ابناء تلك الشعوب وهم يشعرون بعظمة امهم . كل على حدة . وكلهم يرى ان الزعامة الانسانية جديرة بامته وحدها وفي ذلك ما فيه من بغض او ازدراء تنطوي عليه الجوانح لابناء الشعوب الاخرى .

ان منهاج التاريخ في انجلترا للدراسة الثانوية التي تمنح طلابها الفائزين شهادة الاجتياز « المتريكوليشن » لا يتعدى دراسة تاريخ بريطانيا منذ عهد آل ستيورات الى نهاية الحرب العالمية الاولى مع مقتطفات من تاريخ اوربا من القرن الخامس عشر الى اوائل القرن العشرين وذلك لما ينطوي عليه من احداث لها علاقة مباشرة بتاريخ بريطانيا . ويشمل ذلك المنهاج ايضاً دروساً عن مستعمرات التاج في جميع بقاع العالم وكيف امكن الاستيلاء عليها وكيف حصل بعضها على استقلاله . ولا ريب عندي في ان المناهج في معظم مدارس اية امة من الامم لا تعدو مجالاً كهذا في تدريس تاريخ تلك الامة والاشادة بامجادها ولا يتأتى ذلك طبعاً الا بالغض من امجاد الامم الاخرى .

وقد فطن الكاتب الانجليزي العظيم هربرت جورج ويلز لما تسببه دراسة ضيقة الافق كهذه الدراسة من كراهية بين ابناء الشعوب فوضع كتابا في مجلدين كبيرين بعنوان « مختصر تاريخ العالم » قصد ان يوضح فيه ان جميع سكان الارض ابناء ارومة واحدة وان مقياس رقي الامم باتحادها ، ويزيد على ذلك فيمتدح مدنية اهل الصين والهند اكثر مما يمتدح مدنية اليونان والرومان وقصد ولز من وراء كتابه هذا ان يدعو لفكرة السلام العالمي التي كان يترأسها الرئيس الاميركي ولسون بعيد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وقصد ان يعطي القارىء فكرة عامة عن تاريخ العالم اجمع بما اعتور امه كلها من اسباب الهبوط والصعود فلا يتعصب الناس لقومياتهم ذلك التعصب الممقوت الاعمى ولا يعتقد احد ان امته افضل امم العالم .

وفطن اعضاء هيئة اليونسكو العالمية الى هذا الامر ايضاً فقاموا بتكليف احد كبار المؤرخين في كل امة من الامم لوضع فصل شامل عن تاريخ امته منذ اقدم العصور الى نهاية عام ١٩٥٠ ، وقصدت الهيئة ان تتجمع لديها سلسلة ذات ست مجلدات تؤرخ حياة « الانسان » في العالم كله بصورة متكافئة عادلة مع لمحات عما قدمته كل امة بمفردها لعالمنا هذا من حضارات اجتماعية وقد كلف الدكتور قسطنطين زريق بكتابة الفصل الخاص بالامة العربية . ولسوف تظهر طبعات من هذا المؤلف النفيس في جميع لغات العالم .

وعسى ان تعطي هذه الخطوة الانسانية الجليلة مثلًا رفيعاً يحتذيه من يتصدون لكتابة التاريخ فلا يجدون امة على حساب غيرها ولا يكون جهلهم بمدنيات الامم الاخرى وحضاراتها العريقة سببا لتجاهل تاريخ تلك الحضارات واهمالها .

واني اول من يعترف بالتقدم الذي احرزه عالم الغرب في ميادين الصناعة والاختراع . واول من يقول ان الشرق يجب ان يقتبس تلك الاختراعات والصناعات ويحسن فيها اذا استطاع لكي يقف امام الغرب على قدم المساواة ، ولكن هذا كله لا يبرر الافتئات على الماضي ، فالماضي وتاريخه اشياء مقدسة يجب ان تروى بكل دقة وامانة .

والشرق الذي انجب موسى وعيسى ومحمد وبوذا و كنفوشيوس بمن عجز الغرب عن ان ينجب مثلهم من شارعي الاديان وقادة الانسانية ، والشرق الذي خلق فيه هولاكو واتيلا وجنكيز وتيمور بمن عجز الغرب ايضاً عن ان يخلق فيه مثلهم في القسوة والطغيان ، هذا الشرق العظيم بكل متناقضاته وبكل حسناته واثامه ، اكبر من ان يتجاهل تاريخه اي انسان يتصدى لكتابة التاريخ .

يقول الفلاسفة : لكل قضية وجهان ، وعلى هذا الاساس يستطاع تحوير التاريخ دون صعوبة ما وذلك باثبات هذا الوجه دون ذاك . ومثلنا في هذا تاريخ اسرة محمد علي في مصر ، فقد كان هذا التاريخ واضحاً على وجهيه لكل من كان يستطيع القراءة فيما بين السطور وهؤلاء طبعاً قلائل ، ولكن الاكثرية الساحقة من الناس ما كانوا يعرفون عن هذه الاسرة سوى وجهها المشرق اللامع .

كنا نقرأ في كتب التاريخ الموضوعة وفي مجلات وجرائد مصر ان محمد علي رجل من اعظم رجال العالم خلّص الامة المصرية من استبداد المماليك وحاول توحيد بلاد العرب وجلب الصناعات والعلوم الى مصر . وبطبيعة الحال لم يتح لجميعنا الاطلاع على الكتاب الذي الفه الياس الايوبي عن تاريخ محمد علي ونشرته له دار الهلال لعدة اعوام خلت وقد جاء فيه بالحرف الواحد : « ان محمد علي بعد ان استولى على اطيان الرزق والاوقاف فرض ضريبة جسيمة على باقي اطيان القطر فاثار ذلك ثائرة تململ وتذمر في صدور ملاكها وملتزميها فامرهم محمد علي بابراز حجج ملكيتهم لتطبيقها على ما يتملكون ، فابرزوها ، فضبط تلك الحجج واعدمها ووضع يده على باقي اطيان القطر مقابل ترتيب ايراد سنوي لاصحابها السابقين يوازي ايرادها السنوي المعتاد ، اصبح ـ هو ـ حراً في دفعه متى شاء ، وفي عدم دفعه متى شاء ، وهذا كان الغالب . ثم لم يكتف بذلك ، بل حكر الزراعة والتجارة ، فاصبح مزارع البلاد وتاجرها الوحيد » .

ولم يكن يقدّر لنا ان ندرك ان محمد علي في سبيل خدمة سيده السلطان التركي قد قضى على ثورة الوهابيين التي كانت تهدف الى تحرير بلاد العرب حقيقة لا مجازاً . وكنا نقرأ ان اسماعيل جعل مصر قطعة من اوربا دون ان ندرك ان الديون التي اثقل بها اسماعيل كاهل مصر في سبيل فسوقه وملذاته ادت الى استعباد المصريين مما لا يزالون يعانون نتائجه الى هذه الساعة . وكنا نقرأ عن ثورة عرابي دون ان ندرك الدوافع النبيلة التي كانت تعتمل في صدر عرابي وزملاء عرابي من فلاحي مصر .

وقد سررت جداً عندما قرأت مؤخراً ان حكومة الجمهورية المصرية قررت اعادة النظر في كتب التاريخ الموضوعة للتدريس في معاهدها ، سررت لانني اعلم ان التلاميذ سيقرأون الان عن وجهي تاريخ مصر ويعرفون الحسنات الى جانب السيئات .

وما احرانا معاشر العرب ان نجد ونسعى جاهدين في توحيد كلمتنا وتقوية بلادنا الى الحد الذي يضطر معه مصنفو التاريخ الى دراسة تاريخنا دراسة وافية امينة ونشره على حقيقته ، اذ اننا نعيش في عالم احمق اهوج لا يحترم الا القوة وما لم نكن اقوياء الى درجة نستطيع فيها ان نحمي انفسنا من طمع الطامعين وعبث العابثين والى ان نصنع التاريخ كما صنعه اسلافنا من قبل فليس لنا كبير امل في اي استقرار طويل الامد . والتوثب الذي يسود الشعوب العربية جمعاء ويجعلنا اقوياء الثقة في اننا بالغون ما نهدف اليه .

المفرق ـ الاردن سليمان موسى

الى النازحين

✡

اخي في الكويت أخي في اليمن اخي في الحجاز اخي في عدن
اخي رغم ليل الأسى والدموع وليل الشقاء وليل المحن
سألقاك يوماً قوي الجناح عزيزاً هنا في رحاب الوطن

رحلت ... وفي مقلتيك الدموع تعبر عن سخطك العارم
ويرقص في محجريك الحنين الى امسك الذاهل الحالم
ووالدك الشهم فوق الرصيف يحدق في وجهك الواجم
وفي قلبه ثورة الساخطين على شرعة الظلم والظالم

وانت تطل على الواقفين بعينين لا تعرفان الكسل
تحدق والذكريات العذاب تمر شريطاً قصير الاجل
فتذكر اذ كنت طفلا صغيراً يسير على عدوات الجبل
ومن حوله اخوة مخلصون كبار النفوس كبار الامل

وتذكر كرماً سخي القطوف عطوفاً حبيباً كثير الثمر
تباكره قبل لمح الضياء وقبل الشروق وقبل السحر
وتستقبل الشمس في حضنه وتهفو الى ظله والشجر
وتذكر « شبابة » في الدروب تكاد تحرك قلب الحجر
وتدمع عيناك من لوعة وانت تراجع تلك الذكر

وتذكر ليل الشتاء الطويل واحلامه الحلوة الهانيه
واخوتك الهانئين الصغار تراموا على جدة حانيه
تقص عليهم اقاصيص ما اتاها عن الأعصر الخاليه
الى ان يرف الكرى في الجفون فتغفو على نغمة ساهيه

وتذكر ليل الحصاد الجميل وتهفو الى الحقل والسنبل
وصوت « العتابا » يشق السكون وينداح في رقة الجدول
وقد رنت « الميجنا » حلوة ترف على نغمة البلبل
وانت على البيدر المستحب تغني مع النغم المرسل

وفي غمرة من صداع الألم ترامى اليك حنين القمم
وقد صرخت تستثير الحياة وتدعوك انت لذاك الأجم
ودوى بسمعك صوت رهيب جريح الأنين حزين النغم
وناداك لا تبتئس يا بني وشق بكفيك ليل الظلم
واياك كنت فاني معاك أقويك.. اشعل فيك الضرم
اعلمك الثأر.. ثأر الشريف اذا لوثته ضعاف الهمم

وسار القطار وفي مسمعيك دوي البلاد وأنغامها
وفي ناظريك خيالاتها تمر حزانى وأيامها
وقد لطختها بعار السنين أكف الطغاة واقدامها

اخي أينما سرت هذي الذكر ستحيا وتبقى بقاء القدر
ستملأ قلبك مهما نأيت وتبقى بعينيك هذي الصور
وتحيا وتحييك دوماً اذا ماتمشى اليك الاسى والخدر
ستذكر هذا الرصيف الحزين يلوح منديله بالعبر
ستذكره كلما حومت حواليك اطياف امس غبر
وتذكره كلما اوسعوك بشتى خرافاتهم والفكر
وتذكره كلما آلموك وقالوا غريباً وضيع الأسر
وقالوا أتانا يحط الرحال ويسرق من زرعنا والثمر
ستذكرنا في زحام الرؤى وعند الهجير وعند المطر
وفي زحمة من صراع الحنين ستذكر آصالنا والبكر
وتذكر ايامنا الخاليات وليلاتنا في ضياء القمر
ستذكرنا رغم انف الخطوب وانف الزمان.وانف الخطر

وسار القطار ولوحت لي بمنديلك الشاحب الذاهل
ولوح من حولي الواقفون ومدوا اليك يد الآمل
وقد رقصت في العيون الدموع وسارت مع الذاهب الراحل
وعدت ادق الطريق الطويل وامشي مع الأمل الآفل
وفي ناظري ذهول الوداع ينيخ على جسمي الناحل

اخي في الكويت اخي في اليمن اخي في الحجاز اخي في عدن
اخي نفض اليأس عن عارضيك ونفض غبار الاسى والوهن
وصبراً فلا بد للبائسين بأن يثأروا رغم انف الزمن
ولا بد ان يرجع اللاجئون وان يصعدوا فوق هام المحن
ولا بد.. لا بد من عودة الكريم الى أرضه والوطن

غزة — هارون هاشم رشيد

تشارلس دكنز : الاديب الساخر في كتبه

بقلم الكاتب الاسباني جورج مانتيانا ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة



ان الحياة ستظل لطيفة وجديرة بالانسان ، حتى ولو فقد العالم كل شيء في هذا الغليان العارم وهذه الضجة الصاخبة ، وهذا ما استنتجه من كتابات دكنز ، التي تطفح بالبشر والبشاشة والسرور. كيف لا يكون الانسان سعيداً في عالمه وهو يرى الاشياء كما يجب ان ترى؟ ومع هذا فليس لاية ثورة مهما بلغت من شدة البأس وعظم التدمير ان تنال من مميزاته الرئيسية. فالناس سيبقون مختلفين عابثين ساخرين ، كما هم في (شخصياته) ذلك لان ينابيع اللطف والسخف ستظل متدفقة ولن يمسها الجفاف ابداً. نعم ان هنالك اشياء كثيرة لديه ستستغلها الاشتراكية اذا ما ظفرت بالسيادة وستؤكدها وتجعلها عالمية شاملة . فهنالك المدارس وملاجىء العجزة والفقراء والسجون بما فيها من حياة عائلية متقطعة الاوصال مبتورة الاواصر ، وكلها تتكهن بما ستكون الحال عليه في العصر المقبل (بعد التحسينات الصحية التي ستطرأ عليها) عندما تكون هذه الاماكن بيوت الحضانة للاطفال ومساكن لائقة بكل انسان. فيغدو كل شخص لقيطاً كاوليفر توست اوسمايك او ديفيد كوبرفيلد[1] ... وسيمثل على هذا المسرح الجديد كل من ابطاله الآخرين ، مع فارق واحد ، وهو ان النظام الجديد سيقضي قضاء مبرماً على مآسي ابطاله الذين قاسوا الامرين في هذه الحياة بشجاعة خارقة وبطولة نادرة. اما العنصر الوحيد الذي سيزول حتماً بعد ان يبطل استعماله؛ فهو الوضع، والجو، والوسائل المادية والترتيبات المتعلقة بها، ومع ان السفر بالمركبات زال العمل به وانتفت اهميته، لان القطر والسيارات والطيارات حلت محل المركبات ، الا ان السفر بحد ذاته لا يزال يؤثر في الناس تأثيراً عاطفياً . وجدير بالملاحظة الا يفوتنا ذكر هذه الوسائل التي تشغل الحياة العصرية، لانها ـ على اختلافها في عصر دكنز ـ كانت موضع سروره واهتمامه ، كما كانت الحال مع هومر. وعلى الشعراء ألا يخشوا منها ، لان تأثيرها في الذهن تأثير اخاذ بمجامع القلب والذهن معاً ، ولان في امكانهم ان يعبثوا بها ولكن برفق واناة. ومالك الا ان تتأمل في تلك السفن السوداء والعربات التي يحدثنا هومر عنها كثيراً، وتلك المركبات والزوارق النهرية التي يجيد وصفها دكنز. يحدثنا دكنز قليلا عن الرياضة الانجليزية ، ولكنه ـ على ذلك ـ يساهم مساهمة فعالة في طبيعة الانجليزي الرياضية، هذا الانسان الذي يعتبر العالم المادي ساحة لعب، وكل موضع من مواضع هذه الساحة مجالاً لاظهار حبه للعمل والقانون والانجازات المسرة الاخرى . وفنه يسير في الرياضة وفق قواعد اللعب ، وعمله نفسه يجري في اتجاه هدف ذاتي لا يتعداه الى غاية خارجية اخرى . والشيء البارز ـ بالرغم من بساطته الحارة وتفتح قلبه ـ هو اغفاله غير المعقول لما يثير الخيال الانساني من دين وعلم وسياسة وفن. لانه هو نفسه كان لقيطاً ومحروم الارث ، وعلى هذا فان هذا التراث الهائل من الاديان المتطاحنة التي تشغل بال العالم ، تظهر كأنها لم تكن موجودة بالنسبة اليه . ولذا كان يشبه ـ في هذا الخصوص ـ طفلاً حساساً ذا فطرة دينية ، ولكن بلا افكار . ولربما يحق لنا ان نقول : انه لم تكن له اية افكار في اي موضوع كان . وما كان يمتلكه لا يتعدى مساهمة عاطفية كبرى في الحياة اليومية للنوع الانساني، وقد كره المؤسسات التي شاهدها اشد الكراهية لانها كانت مصادر للاضطهاد والشقاء والانانية والمقت. وكانت عاطفته السياسية الوحيدة هي محبة خير البشر، وبالرغم من أصالة هذه العاطفة ، فانها كانت سلبية اصلاحية ؛ اما الطوبائيات الايجابية والحماسة في ذلك ، فامور قلما نسمع عنها شيئاً . اما السناد السياسي للمسيحية ، كما يحلو لنا ان نقول ، فامر تافه بالنسبة لمسرحه . ويمكن تمثيل ذلك في صورة قلعة ، او بارجة

[1] شخصيات روائية .

قديمة ، او مشنقة او ملاك باجنحة بيضاء يترصد بالقرب من قبر يتيم . وهذا النوع من التزويق والبهرجة ، كان يستخدمه في (ملاهيه) ذات الذهنية الضعيفة والفكرة المحلية ، وكان من الممكن ان تكون الحياة العامة متنوعة ومحبوبة لدى دكنز لو أنها تخلصت من الاوبئة والمظالم . وقد رماه العذاب وتحمل الالام باقسى السهام، بعكس الخشونة التي كانت تسر مشاعره وكان كل شيء يثير الناس يملأ ذهنه بالتعجب والدهشة والملاحظة السارة. وهكذا فان الخشونة كانت محببة لديه وقريبة من قلبه ، لانها باب السخرية ومفتاح المرح ، وما الذي نستذوقه ان نحن ارتددنا عنها ورميناها ظهرياً ؟ ذلك لانها كانت بريئة وملذة ، والحق انها تعتبر توابل الحياة بالنسبة للكاتب الساخر وهذا ما يجعله يعتبر التقى في انسانية الشخص لا في مظهره الخارجي ، ولذا فانه حول عيد الميلاد - في احيائه له - من كونه احتفالا بسر (ميتافيزيقي) الى عيد طافح بالبشاشة الطاهرة والسرور النقي . ولكن اجراس الكنيسة لا تزال في موضعها الملائم في الجوقة ، كما ان ملائكة بيت لحم لا يزالون في اماكنهم على الشاشة الخلفية . فالكنائس في رواياته اماكن مهجورة وغامضة حيث يشعر الانسان بتجارب مريعة ، اما المنازعات الدينية والسياسية ، كما يصفها في (بارنابي رج) وفي (قصة المدينتين) فهي عبارة عن مشاحنات في الشوارع ومناظر سجون ومؤامرات في الحانات والمقاهي، مع انتفاء الاشارة الى التناقضات في عقلية ومصالح الاحزاب المتناحرة . ولذا لم يكن في حوزة دكنز اي احساس حيال الفنون الجميلة ، او التقاليد الكلاسيكية ، او العلوم حتى عادات ومشاعر الطبقات الراقية في عصره وبلاده فليس في رواياته ما يمكن ان يدعى جيشاً ، او اسطولا ، او كنيسة ، او رياضة ، او سفرة بعيدة ، او مخاطرة جريئة ، او شعوراً بالمسافات البحرية الشاسعة ، وامم العالم المختلفة .. حتى الحب في شكله التقليدي ، لا يكاد يرى في مجالي دكنز ، واعني بذلك عاطفة الفروسية او بالاحرى تلك القيمة المتهورة الممتزجة بالولاء والمستندة الى العجرفة والكبرياء . فالحب عند دكنز اما ان يكون عاطفياً او احسانياً او مضحكاً او متذللا او متكالباً . وقد حاول ان يصف في كتابه الاخير الحب العاطفي والاجرامي ، الا انه لم يضف عليه غلالة من الشاعرية او رداء الفروسية . واحسن ما يرسمه بصورة مشجية ، هو تلك العاطفة الابوية المزيفة لدى الكبار تجاه الصغار كحب «بجوتي» للصغيرة « املي » او «سولومون جل» «ولترجي» . ولذا فسلسلة المحاظرات الرخيصة التافهة ، كالتي تثير اهتمام الشباب الاعتيادي ، كانت تعتبر لديه رومانتيكية لا اكثر. قلت انه حرم من الارث ، ولكنه ورث اشد التناقضات رعباً وهلعاً . فالدين يحط عليه بكلكله بقوة الضغط الجوي ، ومع ذلك فهو لا يذكر من ذلك شيئاً ، كانه لا يلاحظ ذلك مطلقاً ، بالرغم من انه عاش في ظل اشد المحرمات ارعاباً . فتحجرت القلوب بتأثير قساوة القوانين كما افسدت النفوس بسبب الشهوات الدنيوية ، وطبيعي ان يكون كل هذا موضوعاً طيبا للروائي ، وقد استخدم دكنز ذلك خير استخدام، بحيث جعل الطيبة الفطرية والسعادة تناقضان الشكاسة والنكد، ولكن اشخاصه الشكسبين كانوا لؤماء وابعد شيء عن الفضيلة في حياتهم ، ولذا فمزاجه المعادي للمحيط يتخذ اسلوباً جذرياً ولم يستند على مبادئه الاولية . فكان عليه ان يشعر - في كتاباته - بمبلغ ما كان يتحمله من عواطف كل انسان . وكان الضمير بالنسبة اليه وحدة منسجمة ، ولذا فهو لم يدرك كيف يمكن ان يتجزأ لدى الناس الآخرين . وهذا ما جعله يشجب المخازي والفضائح ، ولكنه مع ذلك تنصل من كشف الاكاذيب والتلفيقات ، واتفق بمحض ارادته الحرة مع ما تعارف عليه الناس من حشمة ظاهرية . فعالج سر السيدة (ديدلوك) مثلاً ، كما يعالج خطيئة آدم ، كأنها شيء قصي ناء تغمره الاسرار من كل فج ، وعلى هذا فلا يمكن اغتفاره . ولم يسمح للسيدة (دوجي) ان تخدع زوجها الا بالتظاهر بخداعه وحسب ، اما اغراء (املي) فيتركه جانباً ، كما هي الحال مع شخصية (ستيرفورث) برمتها ، مع ان تطور ذلك كان يمكن ان يكون له نتيجة هامة في تجربة (دفيد كوبرفيلد) الاخلاقية وليس التعصب القومي وحده هو الذي قام بدور الرقيب على فن دكنز بل زاد في ذلك طيبته الذاتية وضعف قلبه . ولنضرب لذلك مثلاً شخصية (الانسة ماوجر) فهي على براعة تقديمها ، كان المقصود منها ان تكون مبهمة المعالم ، وان تقوم بدور مهم جداً في القصة ، ولكنه حاول ان يوفق بينها وبين اصلها الانساني مغفلاً بذلك النتيجة المنطقية ، مع اعتذار رائع لهذه الانسانة الدميمة . وهذه التضحية تشرف قلب دكنز ! ولكن الفنانين يجب ان يتأملوا كثيراً فيما ينتجونه في الوقت المناسب، لانه من السهولة بمكان حذف اي تشابه في اي صورة بمجرد مس اللوحة مساً رقيقاً ، فتكون في شكلها اقرب الى واقع حياة الناس . وفي هذه الحالة ان كان الانسان حقيقة مجرماً ، فاحر به ان يعترف بنفسه بذلك كما فعل (ادموند) الابن غير الشرعي

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدماً وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيه ونصف او ٦ دولارات ونصف

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات في الارجنتين ١٠٠ ريال

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى

في الخارج : ١٦ جنيهاً او ٦٠ دولار كحد اعلى

المقالات التي ترسل الى الاديب لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكروشية

تلفون { الادارة : ٤٧ / ٩٢ — المنزل : ٣٧ / ٤٨

Tél. { Direct. : 92 - 47 — Dcle, : 48 - 37

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : **البير أديب**

سكرتير التحرير : **محمد يوسف نجم**

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

في رواية (الملك لير) وكذا الحال في (دوجي وابنه) فان دكنز لم يحتمل ان يترك (ولترجي) يتحول تحولا سيئاً ، كما كان يعنى ان يفعل ليكسر قلب عمه وبطلته ، بل بالعكس نراه وقد تحول الى بطل مسرحي ينجو بمعجزة من الهلاك والدمار كما انه لم يسمح (لفلورينز) لتجازي (توتز) الرائع بيديها المرتجفتين كما كان المرجو ان تفعل . ولكن دكنز لم يكن فناناً حراً ؛ ذلك لانه كان يمتلك عبقرية يعوزها الذوق ، وخيالا جامحاً لا تدعمه دراسة وافية للاشخاص ذوي النوازع والمشارب المختلفة . ولذا فقد عمل تحت وطأة المال والثناء ، وهذا ما اضطره الى الاسفاف في انجازات وحيه الذي كان ينبض بالحياة والحركة ، وبعد ، فماذا يتبقى من دكنز اذا كان له كل هذه التحديدات ؟ وطبيعي ان نقول بعرفنا الرومانسي : لا شيء .

ولكن الحقيقة غير ذلك ، فهي تشير الى ان كل شيء باق وثابت ، كل شيء له علاقة بحياة البشر اليومية ، اعني ذلك الشيء الذي يقرر وجوده او عدمه ، كون الحياة اهلا للتشبث بها ام لا ، لان الحياة البسيطة الطيبة تستأهل التعلق بها ، اما الحياة الرديئة المزوقة فهي لا تستحق ذلك ، يترسب من كل ذلك في الدرجة الاولى المأكل والمشرب وما اليها ، مع اجتناب التطرف الى حد النهم والشراهة الوحشيتين ، بل ان يكون تعاطيها انسانياً ، لطيفاً كاساس سار سليم لكل شيء آخر . وهذه بداية انجليزية حسنة ، ولكن النتيجة المباشرة لا تقل روعة عن ذلك وخصوصاً في انجلترا في عهد دكنز . فهنـاك توهج المدافىء الوردي ، ولمعان الكؤوس والاواني والروائح العطرية للمشروبات الحادة بعد وخزة الرياح الشتوية ، وهناك مناظر السفر بالمركبات ومختلف الاشخاص والحوادث التافهة في السفر ، ومسرات الطريق وما يعتورها من صنوف الاماكن المتغيرة . واكثر من هذا ، فهناك الحركة التجارية اللاهثة في المواني والمدن ، وضجة الشوارع المكتظة بالسابلة ، وبهرجة واجهات الحوانيت الممنوع دخولها ؛ ومواكب الغادين والرائحين بثيابهم الرثة أو المتأنقة تأنقاً مبتذلا ، ومناظر البيوت المرطبة وروائحها الزنخة والحارات التي لا منفذ لها والساحات والاصطبلات والاطفال والنساء الخرفات المشاغبات المازئات والرجال السكارى الذين اكل قلوبهم الوهن والضعف . ففي عرض كل هذه الصور ضرب من الحكمة ، كانت تجتذب دكنز اجتذاباً مؤثراً قوياً ، لانه كان يحب ان يظهر توافه الناس في مظهر مهم في المناسبات الكبيرة ، ويبين مشاغلهم واحزانهم عندما كانوا يسرعون في

مواكب المآتم او في قضاياهم الملحة . كما انه التفت الى الاشخاص المحزونين الهزليين الذين يرتادون الحانات، واعجب بذكاء اصحاب الحوانيت الذين يشبهون السنجاب في اقفاصه ، والاطفال الذين يحملقون بعيونهم من وراء النوافذ ... وسحر الاشياء البسيطة ونبل الناس ذوي النية الطيبة، وقد هالته شناعة الجرائم وفظاعة الرذائل ، فتأمل خيراً في الفضيلة ويدها البيضاء الماهرة التي تمسح في اناة وصبر وجه هذا العالم المتخبط في جنونه ، وأخيراً ريح اللامبالاة التي تهب منعشة زاهية في عرض متاعبنا ، لكي تروق السماء المكفهرة بالهموم والملبدة بالغموم . وانا لا اعلم ما اذا كان الاحسان المسيحي ، او بعد النظر الطبيعي او كلاهما (لانهما متقاربان) هما اللذان جعلاه يميل الى المشوهين وذوي العقلية النصفية والمنبوذين وهؤلاء الذين يساء فهمهم لسبب خفي فالحكمة الظاهرة في كل هذه الاشياء – اذا لم يمنعنا التعصب الوحشي من رؤيتها – تقرب كثيراً من الفلسفة الحقيقية، بمجرد تغيير بسيط او لمحة من التأمل، فتصبح الطبيعة وعلاقتها بالاخلاق الانسانية مدركة كل الادراك (بعد ان كانت خافية عن الابصار في سجف مظلمة [1]) . وكان دكنز في محبته للطرق وعابري السبيل والمرافيء النهرية والارصفة والاشخاص المنحوسين الكسالى الذين يتسكعون بينها يشبه (ولت وتمان [2]) . وانا اظن ان كاتباً آخر شبيهاً بدكنز سيظهر يوماً ما في امريكا ، عندما يكون في الامكان الوصول الى نقطة الاتباع في ارض السرعة، ويكون في الاستطاعة وصف الوقائع المألوفة بسرور لا شك فيه . فروح دكنز اقدر في اعطاء امريكا حقها من (ولت وتمان) ، لان امريكا ، ولو ظهرت كأنها سديم مزعج بالنسبة للانطباعيين ، الا انها في الحقيقة لا تعدو كونها مفترق طرق، فيها هيئات مختلفة طبيعياً واجتماعياً، لكل منها مصالحها الخاصة وتأريخها الذاتي . ذلك لان (ولت وتمان) يؤمن بضرب من اضراب الفلسفة الارتقائية، هذه الفلسفة التي تعتبر الكون وحدة منسجمة ، وتفرض وجود روح كونية في الاشياء تطابق الروح المطلق الذي يرقبها ويديرها. غير ان دكنز لم ير هذا الرأي، ذلك لانه اصر على البقاء كروح حقيقية في اطار شخصيته . مع انه هبط الى منازل العمال ، كاحد ابطاله ، ولكن الرحمة الظاهرة والبصيرة النفاذة والشخصية القوية والانسانية الاخاذة كانت جلية في انسانيته، ولذا ثبت على ولائه وشجاعته في معالجة المشاكل الطافحة في هذا الخضم الهائج ، وكان مثله في ذلك كمثل ملاك شاحب اللون وسط «الكرنفال» يتلظى قلبه بالحنين ويرق صوته ويدق ويشتد تبعا لصوت القيثارة التي تلعب بخيال الجمهور كما يشاء لها اللعب ! وهذه هي العلاقة الحقيقية بين الروح والوجود ، بخلاف تلك العلاقة المربكة التي تحول دون الانسجام بينهما . لان هذه الارض (اذ ليس لي ان اتكلم عن الكون عموما) لا تملك روحا بذاتها ، بل انما هي تنجب مثل هذه الارواح في اماكن شتى معينة ، اعني في قلوب واذهان هذه المخلوقات الحية الضعيفة التي ترفرف مثل الفراشات في مناكبها، فتئز بحثا وراء الرحيق لتجمعه ، وهي لا تقدر على وصف شيء غير هذه المسافات التي تقطعها وغير هذه الاحمال الثقيلة من المسؤليات الادبية الملقاة على عواتقها . اما ان تدرك غور هذه الامواج المتدحرجة في اللانهاية فامر لا قبل لها به . واما ان يسحر الانسان بهذه الاعماق فمعناه عبادة وثنية ليس الا، وعليه فان (ولت وتمان) في خيالاته الديمقراطية الشاملة لم ير الحقائق كما هي ، وظل غير قادر ، بالرغم من حبه العميق للقطيع الانساني على تصوير شخصية او حكاية قصة كتلك القصص والشخصيات التي كان دكنز فيها استاذا بارعا . فحياة الفرد كما هي في اية امة كانت هي التي تقرر قيمة تلك الامة بالنظر للشاعر او الفيلسوف الاخلاقي او المؤرخ المدقق ... وقد دخل دكنز ملهى هذا العالم من باب المسرح ، فحلت مخاطرات الممثلين التافهة محل المآسي الهزلية التي يمثلونها امام النظارة الحالمين ، فتفاهة الاوضاع والظروف واسفاف الروح تعود دائما فتتوسط مسرحه . وقد يقتحم دكنز احيانا مجالا لنوع من الوجود السامي والتعس ، ولكن الرقاص لا يلبث ان يرجع الى موضعه بسرعة وكاننا نعود نحن من سفرة بعيدة بديعة (متعبة) بعد ان تنفسنا الصعداء ، الى تفاهة حياتنا الفانية ، الى هذه الموائد بما عليها من مأكولات ومشروبات والى الحب والاطفال والعيش الرغيد في بيت من هذه البيوت الحلوية في ضواحي احدى المدن . وعلى هذا ، فدكنز اذن شاعر تلك الشوارع القرمدية التي تنتشر على مدى البصر ، والتي يراها المسافر من على جسور السكك الحديد عندما يقترب من لندن ، وهذه الاماكن تحتاج الى شاعر يعبر عن احاسيسها وتستحقه ، لان الحياة الانسانية الشاملة تنبض هنا بقوة وعنف . فسكان هذه الاماكن – بما يعتمل في نفوسهم من اثارات واحزان وآمال وسخريات –

١) من كلام المترجم   ٢) هو اديب امريكي كبير كان يدين بمذهب الفيلسوف الامريكي امرسون . — المترجم

يشبهون في مشاعرهم هذه مشاعر ضابط الصف البحري في رواية (دومبي والابن) ولكن البحر ليس ببعيد ـ و دكنز لا ينسى ان السماء اعلى من هذه المشاغل القصيرة . زد على ذلك أنه كان ميالا ميلا فطرياً نحو وجود هذه البساطة الواسعة في مصائر الجنس البشري . وبالرغم من لمعتها الذاتية فانني اعتقد انها ستكون العاطفة السائدة في حياة النوع الانساني في المستقبل ، لانها ستكون شعورا بالحرية المعيدة وخشوعا عميقا لجلال الكون فهذه الانسانية الكبرى تشبه محيطا لا تحده نهاية وهو على ازدحامه بهذه المخلوقات يمثل صورة من الفراغ الداعي الى الخشوع والوقار . فالخشوع هو صنو الوداعة ، ولربما كان هذا هو الدين بالذات . وجوهر العالم هو البساطة ، وعلى الانسان ان يرى ذلك بنفسه حتى اذا لم تكن هذه الرؤيا مادية ، كما ان حبه يجب ان يكون ذاتياً ، اي الا يكون له اي تأثير في العالم ، وله ان يعترف بماهيته كما هي بلا طعن . لان في امكانه ان يسر بوجوده الذاتي كسروره بوجود الاشياء الاخرى بقدر ما يمتلكه من مشاركة وجدانية . ذلك لان نصيب الوجود او الحظ موكول الى (أيد اخرى) اما قسمته فتنطوي على الرضا و الرؤيا والحب والضحك . ولما كان دكنز يمتلك الوداعة ، وهي تلك العاطفة الاشد تحرراً وانعتاقاً ، ولما كان مستحوذاً على القابلية الادراكية الحقة في تفهم الوجود الانساني والتمتع به ، فهو ـ على هذا ـ كان محظياً بموهبة فذة في مجالي السخرية واللطف والهزل ، وهذه الصفات هي التي جعلت منه كوميدياً كاملاً . ويظهر لي ، عندما يقول الناس ان دكنز مبالغ ، بأن مثل هؤلاء قد فقدوا ابصارهم وآذانهم فهم عمي صم ، لا رجاء فيهم . ولربما كان ذلك لتوهمهم بما تعارف عليه الناس من افكار واعتبارها اعتباراً شكلياً . فاذهان مثل هؤلاء لا تتعدى نطاق الكلام حيث لا ترى غير الاقنعة بلا وجوه وحيث الافكار المجردة من الواقع ، ولذا فهؤلاء الناس لا يشعرون بما في تلك التقطيبات والابتسامات التي ترتسم على وجه العالم من لحظة الى اخرى من دلائل ودلائل يعجز الوصف عن حصرها وتبيان معانيها كاملة غير منقوصة .

فالعالم صورة هزلية مستمرة في تجددها ، وهو في كل لحظة يسخر من نفسه ويناقض ما كان يريد ان يكونه ، ولكنه مع ذلك يرغب دائماً في ان يكون شيئاً مختلفاً وموقراً ، وهذا ما يجعله يصحح اخطاءه ويحاول ان يتدارك السخف الذي كان يتخبط فيه ، وبذا يفرض على نفسه عرفاً من الاقنعة ، فيغدو هذا العالم المقنع غير ما هو عليه في الحقيقة والواقع ، وبذا تتبدل المفاهيم والقيم ، حتى يقضى نهائياً على الصراحة والوضوح بحيث تصبح الحقيقة اثراً بعد عين . وما الفكاهة (Humour) الا ادراك مثل هذا الوهم ورفع الستار عما يعنيه هذا الوهم ، وذلك لانه في امكانها التغلغل هنا وهناك في منافذ العرف ، مع بقاء العرف قائماً بذاته لم تمسه يد التبديل والتغيير . اما المهزلة (Comedy) فهي اقسى واعمق جذرية في فعلها واقل انسانية في تأثيرها ، لانها تقضي على العرف برمته فتسر بهذا الامر لحظة ثم تقول لتخيلات الانسانية بوحشية كأنها تصفعها في وجهها : (ها كم ما انتم عليه حقيقة !) . وعلى هذا يحاول العالم المهذب ان يضحك ، ليس بسماحة كما يفعل في الفكاهة بل بغضب اشد وتأثر اعمق . لان هذا العالم لا يريد ان يرى نفسه في المرآة قبل ان يكون له الوقت الكافي لترتيب نفسه ترتيباً لائقاً بالتأمل الذاتي . واذا لم يتحقق له ذلك يسخط معلناً « ما ابشعها من مرآة ، انها لا بد ان تكون مقعرة او محدبة ، لانني لم اظهر بهذه الصورة وعلى هذا الشكل من قبل مطلقاً ، ولا شك ان دكنز يبالغ لانني لم اكن عاطفياً بهذه الدرجة ، ولم ار شيئاً مرعباً مثل هذا ، وانا لا اعتقد بوجود اشخاص من امثال كولب وسكويزرا والعريف بزفوز » .

ومع ذلك فان العالم المتمدن لا ينطق بالحق لانه يوجد اشخاص من هذا النوع ، ونحن انفسنا لا نعدو أن نكون مثل هؤلاء في لحظات حياتنا الحقيقية وبواعثنا الصريحة ، ولكننا نعنى بخنق مثل هذه اللحظات واخفائها عن انفسنا وعن العالم ، واضعين بذلك انفسنا في داخل قناع شخصيتنا ، وهذا ما يجعلنا نصرح بابتسامة عريضة ، بان دكنز ليس فناناً ، وبانه خشن لانه يفسد علينا حياتنا بتذكيرنا بحقيقة ماهيتنا . اما ما يتعلق بالناس الآخرين ، ونحن ولو كنا نسمح لانفسنا باعتبارهم سخفاء او سطحيين ، لكننا لا نرغب في التمعن في شذوذهم او السخر بهم ، بل على العكس فمن اللياقة وحسن الادب تجنب ذلك ، بامتناعنا عن الابتسام واخبار انفسنا بان هذا الشخص المضحك في الشارع ليس مثيراً للضحك اطلاقاً ، بل شخصاً اعتيادياً ، ومن الحماقة اعطاء اهمية لقبعته التي طارت عن رأسه ، او انزلاقه في عرض الشارع بفعل قشر ليمون ، ثم جلوسه على الرصيف بلا غاية او قصد ، ثم استجدائه القرش ، ثم امساكه باهداب القرش حالما يحل في راحة يده بقسوة وعنف . وهذا مشهد يمكنه ان يمثل بصراحة حالة اكثرنا الاخلاقية في معظم الاحيان . ولكننا لا نريد ان نفكر في ذلك متنكبين طريق الحقيقة ، ومعزين انفسنا قبل ان نحزن ومؤكدين رصانتنا ، فنحن نخاف ونستحي ونقلق

من مجرد ذكر اسمنا .

والشيء الذي يزعجنا في دكنز هو اصراره على عدم الاستغناء عنا ، فهو يسخر منا بدون تورع وبكامل الحرية ، ولا يكتفي بذلك بل يسهب ويعيد وينهك قواه بالانغماس في مثل هذه الاشياء . فهو لا يلتفت يسرة او يمنة لانهماكه في تفهم التجارب ولا يعنى كثيراً بادراكنا اياها . لانه لا يفكر فينا بسبب امتثاله لبواعث العاطفة التي تتمثل في الشخص والقصة التي يريد ان يسردها علينا . وهذه الكفاءة التي جعلت منه كوميدياً كاملا هي التي عزلته عن الجيل التالي ، لان اصحاب الذوق غدوا فيه علماء في (الجماليات) كما اصبح التظاهر شيمة الفضلاء الذين ارادوا فناً متبختراً فاعطاهم ارتجالا غزيراً ، ورغبوا في التحليل والتطوير فقدم لهم المهزلة العارية المطلقة. وعلي ان اعترف ولو ان هذه جريرتي وليس جريرته ، بان اطلاقه في بعض الاحيان مما لا اتمكن من استيعابه والاحاطة به . فمثلا حين آتي الى موت (نيل الصغيرة) او الى ما تحدثنا به الرياح السافية، او شكاسة (دورا) التي لا يمكن اصلاحها أراني مضطراً ان اقفز قرفاً (مما أرى واسمع) لانني لا يمكن ان اتناول شرابي بهذا القدر من الجرعات ، ولذا فان الانسان الداخلي الذي انطوي عليه يصرخ حتماً قائلا : ارجوك دكنز كفى. ومع ذلك فانا جبان في كثير من الاحيان لان في العالم كثيراً من الاشياء التي اقرف منها بمثل ما افعل مع شراب دكنز غير المخفف . فاذا وصلت (دوفر) في يوم عاصف مثلا، فانا سانتظر هناك حتى يهدأ القنال ، ألست على سفر في نزهة ؟ ولكن فطنتي لا تعميني عن تلك الفضيلة المدهشة التي يتمتع بها البحارة الذين يعبرون القنال في كل الاحوال الجوية ، ولا عن ذلك التصميم الذاتي الذي تتمتع بها السيدات المصابات بدوار البحر ، مع انه يمكنهن ان يقتفين اثري في الاخلاد الى الطمأنينة والراحة . فهؤلاء جميعاً اوفياء لسفرتهم كوفائي لفلسفتي . ومع تدثري بمعطفي وتأكدي من العشاء اللذيذ ، فانا اقطع رصيف الميناء جيئة وذهوباً، شاعراً بتفوق الملاحين وشجاعتهم، فرحاً بالنسيم الذي يهب في وجهي ، ومادّاً ذراعي الى ذلك المسافر القلق، ومراقباً بعاطفة ثائرة تلك الروابي المتقهقرة التي خلفها وراءهم هؤلاء الابطال ليستقبلوا بعد فترة سواحل جديدة وارضاً غريبة اخرى . واذن فالشجاعة (التي كان دكنز يمتلكها بلا علم بها) والعطف الشامل (الذي كان يعرف انه يمتاز به) هما ما نتطلبه لشد أزر

معنويتنا كي يكون في امكاننا ادراك العالم على حقيقته السافرة وهكذا فكلنا جبناء لانه ليس منا من يتجاسر على تفهم انسانيته، وليس منا من يعترف بضحالته وسخافته ، ذلك لانه يعوزنا التواضع الاساسي . وعلى هذا فنحن لا نريد ان تنتهز لحظات حياتنا فتفضح مبادرتنا الساخرة بلمحة سريعة ، فيضحك منا الناس امام انظارنا. ولهذا السبب نحن لا نحب دكنز ، ولا نحب المهزلة ، ولا نحب الحق. فدكنز كان يرتدي القناع الهزلي بشجاعة بريئة وبيسر طبيعي وببشاشة لطيفة قلما وهبت لغيره من البشر.

وعلينا ان اردنا شيئاً شبيهاً بذلك، ان نعود القهقرى الى الشعراء الساخرين العظام من اضراب شكسبير وارستوفان . ولنضرب لذلك مثلا عرضياً يعز كثيراً الاتيان به . جاء في احدى رواياته التي يقول في سياقها : « (ان السيدة بمبل هي التي فعلت هذا) يقول ذلك السيد بمبل في الحاح واصرار ، ثم يلتفت يسرة ويمنة للتأكد من ترك زميله للغرفة ، فيرد عليه براون قائلا (ان هذا ليس عذراً ، لانك كنت حاضراً اثناء اتلاف هذه الحلي ، وعليه فانت مخطىء من جهتين في نظر القانون ، لان القانون يفرض تبعية زوجتك لك ، ويتطلب منك ارشادها ونصحها ، فلا يكاد السيد بمبل يسمع ذلك حتى يشد على قبعته بكلتا يديه ويقول معقباً على زميله (اذا كان القانون يفترض ذلك فهو اذن حمار غبي ، واذا كان هذا نظر القانون فهو اذن اعزب ، واسوء ما اتمناه هو ان يفتح عيونه بالتجربة) وهكذا بعد ان يعيد السيد بمبل هاتين الكلمتين كثيراً يشد على قبعته بجزم اكثر ويضع يديه في جيوبه ويتبع صاحبه الى الطابق الاسفل » هذه ولا شك كوميديا راقية وحلم عنيف وعبث قاس لا يرد ، لهذا الانسان المجنون الذي يحاول بتشخيصه للقانون ان يعاقبه ويقنع غيره بذلك ، وانا افهم ان هذا الاسلوب من الكلام ليس عاماً في الادب الانجليزي ولا يستذوقه الناس كثيراً ، لان الكوميديا الخالصة ساخرة بلا رحمة ومدمرة بلا شفقة وهي لا تسمح بشيء خلاف ذلك . ولهذا السبب فان الشعور الانجليزي يجفل من وحشيتها ، ومع ذلك فان عامة الشعب يحبونها لدى المهرجين وفي مناظر الالعاب ، وانا اظن انهم على حق في هذا . وبالرغم من رقة دكنز فان عبقريته الساخرة كانت قوية جارفة لا قبل للانسان بصدها ، وهذا ما حمله على تجاوز نطاق الفكاهة اللطيفة ، هذه الفكاهة التي يمتلكها كثير من الانجليز بصورة عامة . وخذ لذلك مثلا ما فعله (سكويرز) عندما ارتشف الكأس المنحوسة فانه مسح شفتيه وصرخ قائلا « هذا هو الغنى ! » . وهذه ولا ريب كوميديا وحشية ...

ومع كل ذلك ، فانا في شك من تفضيل الحساسية الانجليزية لذكاء (هاملت) وفكاهته على هزل (فالستاف) النقي . وحتى لدى (ارستوفان) فان هذه الحساسية تلجأ الى العزاء في الشعر الغنائي وتفضله على نقد الحياة نقداً جارحاً . وبالرغم من كون الاذواق حرة ، الا ان ذلك يجب ان لا يدعونا الى نكران مهزلة الحياة وما هي عليه من عبث ولهو . فاكثر مخلوقات دكنز سخرية ليست مبالغات ولا هزءاً باشياء واخرى غير ذاتها . فهي تبرز للوجود لان الطبيعة نفسها ارادتها على ذلك ، وعليه فهي تحيا لانها لا تقدر سوى ان تفعل ذلك. والحقيقة ان هذه المخلوقات التي تبرر وجودها بذاتها ، لا تبدو سخيفة الا بالمقابلة ، ذلك لان الظروف وما يأمله الناس الآخرون هي التي تجعلهم موضعاً للسخرية وتضطرهم الى مناقضة انفسهم بانفسهم ، ولكن الشذوذ في الطبيعة ليس بجريمة ، وغالباً لا يكون هذا الشذوذ حتى ولا طالعاً سيئاً ، لولا وحشية الانسان . والحال كذلك مع الصبي الناعس الاجفان الذي يبدو بليداً في (بكوك) فهو ليس اكثر بلادة ولا اقل حقاً في تبرير وجوده من تلك اليقطينة الراقدة على الارض ، اما توتز الذي يظهر بمظهر يدعو الى السخرية العارمة ، والذي يضحكنا تقطع كلامه وتبهجنا حشمته المتطرفة ، فهو واحد من هذه الكائنات الحية ، التي متى كان في الامكان ان تصير غير ما هي قادرة عليه ؟ ولذا فان (بكوك) و(سامويلر) و(غامب) و(مكاوبر [١]) وبقية اشخاص هذه الشرفة العجيبة يلوحون مسخرة رغماً من ارادتهم ، لانهم لا يريدون ان يبدوا كذلك . اما اذا ظهر (اوبيدس) و(لير) و(كليوباترا) بغير هذا المظهر ، فلأن ذلك راجع الى التأمل التراجيدي الذي حملهم من حقيقة ماهيتهم في الحياة الواقعية ووضعهم في الموضع الذي يريده الشاعر. اما اذا نظرنا اليهم كحقائق واقعية وليس اضغاث احلام شاعر ، فسنضحك منهم حتى قيام الساعة ، فيا لها من عجرفة مضحكة ويا لها من نزوات سقيمة ويا له من تناقض جنوني لابسط الحقائق ! ومع ذلك يجب ان نضحك منهم عن غير الشعور باحزانهم التي كانت حقيقية ومرعبة بقدر احزان الاطفال. ولكن الحقائق على جديتها داخلياً فهي تافهة خارجياً . والناقد الحق للحياة يرى الحقائق من الوجهين كما فعل (سرفانتس [٢])

١) شخصيات روائية ٢) كاتب اسباني معروف بكتابه (دون كيشوت) وهو آية في السخرية اللاذعة .

في (دون كيشوت). والمثالي المتعجرف الذي لا يرى السخرية في اي شيء مخدوع بعطفه وتجريده ، وكذا الامر مع المهرج الذي لا يرى في هذه المخلوقات الساخرة احياء يعيشون في واقع الحياة ، فهو مغرور بانانيته .

اما دكنز فقد رأى ذلك كله فادرك غور الحياة ، وهذا ما يجعلني اعتقد بانه كان فيلسوفاً حقاً . ومن المعتاد مقارنة دكنز (بتكارى ١) غير ان هذه المقارنة تعوزها الدقة ، فعلى الرغم من بعض المشابهة بين الاثنين ، فان انتاج دكنز اغنى نوعاً وانقى اصالة واشهى طعما ... ومع ذلك ، فانا لا اعني طبعا بقولي هذا ان دكنز قد ادرك القيم الانسانية برمتها ادراكا لا يدانيه احد غيره . لان اعاظم الفلاسفة من اضراب ارسطو لم يبلغوا في تصورهم للسعادة وانواعها والحمق واشكاله غير ما كان يفرضه عليهم عصرهم من قيم ، وغير ما كان يظهره لهم مزاجهم او بعد نظرهم في اكتشاف مبدأ السعادة ، اعني كونها حياة ذاتية منسجمة مع الظروف . وعليه فمشاركة دكنز الوجدانية وتصوراته ، على ما هي عليه من حيوية نابضة كانت هي بدورها محدودة النطاق . وبالطبع فان شغله الشاغل لم يكن ايجاد القواعد الفلسفية ، ومع ذلك فانا ادعو انتاجه كمال الاخلاق لسببين : فهو اولا ميز بين الخير والشر ووضع كلًا في موضعه الملائم ، وثانياً لانه شعر بهذا التمييز شعوراً دقيقاً ذلك لان الاخلاقي يمكن ان يصدر احكاماً ممتازة ويمكن ان يكشف الستار عن معنى الحياة التلقائية في كائن معين ومدى انسجامها مع الظروف ، ومع ذلك فان قلبه يظل جامداً فلا يتألم او يسر بما سبق ان تنبأ به . والكتاب الانسانيون امثال (بنتام) و(مل) الذين تكلموا على السعادة الكبرى لاكبر عدد لا يعدو كونهم رجالا ذوي حذلقة اخلاقية في اشخاصهم ، ويجوز انهم كانوا باردين في محبتهم النظرية للانسانية...وحتى لو كانت نظريتهم سليمة صحيحة (وهذا ما كان في نيتهم على ما اظن) فانهم لم يكونوا اخلاقيين كاملين لان مبادئهم لم تعبر عما في قلوبهم من مشاعر واحاسيس. وللتعبير عما في قلوبهم كان يجب عليهم ان يعتنقوا نوعاً من انواع (المثالية) التي هي الواسطة الحية في اسناد معنويتهم كبشر يشعرون بما يشعر به الناس من عواطف مريرة والتزامات بائسة ، وذلك لانهم لم يرغبوا في اسعاد الانسانية بالوسيلة التي يريدونها .. اما دكنز فان حب الخير العام يشع متلألئاً ببهاء سماوي في كل صفحة من كتبه ، وتبدو مشاركته للحياة رقيقة شفافة ، لم يلوثها شيء من هذه التقاليد البالية او الحذلقة او المباهاة او الانحراف مهما كان مصدره ، فما كان اكرم هذه الروح المتأججة وهذا القلب المتفتح الرائق!

وبالرغم من هذه الحساسية المرهفة فليس هناك اي ترجح او تذبذب او انحراف عن الحكم العادل او التمييز الدقيق بين الابيض او الاسود وهذا جلي واضح وامر واقعي حتمي يستحق كل ثناء. لان المشاركة الوجدانية لا تضبط بالتحامل والاوامر المتناقضة التافهة او الالتزامات القطعية التي لا علاقة لها بالطبيعة الانسانية ، انما يتأتى الضبط باستقصاء سير الدوافع التلقائية وتفهم الظروف التي تؤدي الى النجاح او الخيبة . والمشاركة نفسها بارتباطها بالعاطفة الانسانية تعجل في شعور دكنز بالخطر ، وجذله نفسه يدفعه الى محاربة هذا الخطر بصرامة وعنف . ولذا فانت تدهش لوصفه للاشرار الجفاة ، فليس هناك اي تعبير وعظي لهم ، ولا شيء من المغالاة عن آلامهم ومخاوفهم ، بل بالاحرى كل ما نلمسه لا يتعدى شعوراً ادراكياً تاماً ببداهة سلوكهم من وجهة نظرهم ، ومع ذلك فليس هناك ما يدعو الى الدفاع العاطفي عنهم ولا عبادة عمياء للثوار في مجونهم وجنونهم وجرائمهم. فهذا الشعور العميق (بالحوادث والاشخاص والظروف) لم يكن يرى من خلال بصيرة ثانية بل بالبصيرة الاصيلة نفسها ، هذه البصيرة التي ابانت اغراء العاطفة وانحرافها. اما الرذيلة فيصورها في شكل وحش وبسيماء أسيفة ، وعلى هذا فكلما اطلنا النظر اليها احزننا ذلك ، اما ذلك النوع من الرذيلة التي وجد فيها (بوب) بعض الاغراء ، فهي لم تكن سوى عاطفة بريئة مكبوتة بصورة مفتعلة بسبب خروجها عما تعارف الناس عليه ، وهذا مما يجعلها مزعجة حيال المجتمع ، هذا عن الرذيلة العرفية بيد ان الرذيلة الحقيقية لا تعدو أن تكون سجية انسانية اصابها الاختناق في محاولتها الانتحارية للتغلب على المستحيل... وانا اعتقد بعد كل هذا بان دكنز هو خير اصدقاء الانسانية واقربهم الى قلوب القراء ، لانه تعرف على مشاكلها ، فشاركها في سرائها وضرائها ، بروح نقية خالية من التحامل الممقوت ، رائدها الانصاف والعدل ، وحاويها الرزانة واللطف ، يدفعها الى ذلك انسانيتها وسماحتها وكثرة تمرسها بتجارب الحياة في مختلف صورها ووجوهها ٢)

بعقوبة ـ العراق
يوسف عبد المسيح ثروة

١) اديب انكليزي عرف بكتابه (Vanity Fair)
٢) من كلام المترجم

تروبادور

✡

أنا عازف القيثار في عرض الطريق أفنيت ليلي للعشيقة والعشيق
خلف الستائر هوّمتْ أنشودتي كالحلم في اسبالة الجفن الرشيق
النور في الشباك كالايمان في الاضلاع تومض فيه أشواقي بريق
يا ألفة الروح التي غنيتها هل تعرفين بليلتي ممـــا أريق ؟
أنا عازف القيثار يا اهل الهوى من قدس اقداسي أريق على الطريق
وأمد قبعتي بكف راعش والقلب في الاحناء يرجف . . لا يطيق
أخفي عليه تسوّلي تحت النوافذ في قناع من خيالاتي رقيق
يا ليل . تحتك هيكلي اخفيته فكشفت فيَّ معالم العبد الرقيق
أنا عازف القيثار يا أهل الهوى من قدس أقداسي أريق على الطريق
بدمي صنعت لليلكم أحلامه ووهبت قيثارتي هتافات الشروق
بيدي بعثت النور في اقلاعكم وبقيت في قاع الازقة كالغريق
لا تحزنوا للصمت اذ أمضي وألعق في انكسار ما أرقت على الطريق
وتموت اغنيتي على شفة المساء ويهلك اللحن الضرير على الطريق
انا عازف القيثار يا اهل الهوى علمته لغة العشيقة والعشيق
أنطقته بالحب وهو موسّد صدري الممزق فوق قارعة الطريق .

القاهرة

الفريد فرج

الشباب والحماقة

بقلم محمد احمد رمضان



لقد مر بي متمهلا ، وعلى شفتيه صفير مصطنع ، وشعرت بالخوف يزحف الى صدري فجأة حين رأيت ثيابه الممزقة ، والجرح الغائر الذي يتدلى من اذنه الى اسفل فكه كمجرى النهر ، فحشرت يدي الشاحبة في جيبي اتحسس المنديل الذي لففت به ما تبقى من نقودي ، فوجدت الجنيهين ما زالا قابعين هناك .

كانت هذه حماقة لا يأتي بها الا الابله ، ولكنني كنت اذ ذاك في ذروة البؤس ، وليس هـذا كل شيء . فهناك ايضاً الحماقات التي كنت اقدم عليها وانا فتى يافع يوم ان كنت احب (مها) ذلك الحب الذي لا مبرر له ، ولكنني الآن وقد كبرت لا اجد في نفسي – رغم هذا – ادنى ميل للسخرية من عاطفة ذلك الشاب الذي كنته يوماً ما ، ذلك ان السمو الذي كان في حبه ، – رغم انه كان قائماً على الحرمان والجهل معاً – لاروع بكثير من كل علاقاتي مع ذلك النوع الانيق المتعطر الدساس من النساء ، في هذه الايام التي لا استطيع فيها التمييز بين الحب والشهوة وانا بين احضانهن . .

حين دسست يدي في جيبي خوفاً من ذلك الوجه الفتاك المراوغ ، كنت في الثامنة عشرة . ولعله لم يكن بين زملائي في المدرسة من يماثلني في البؤس المعتم ، فلقد كان لكل منهم اعانة منتظمة يعيش عليها ان كان غريباً ، او بيت يستريح تحت ظلاله من حر الظهيرة ، اما (ام كريم) الارملة التي تزاول مهنة الخياطة بالاضافة الى مهنة تربية اربعة اطفال جائعين نهمين – فقد كانت والدتي . ولهذا كانت عاجزة عن ان تمدني باكثر من ثلاثة او اربعة جنيهات ، وكنت كلما اتتني رسالتها ، انتظرت ان يتضمن الغلاف نصائح قاسية تصل في اغلب الاحوال الى حد الاهانات في حق رجولتي ، وكان هذا كله بسبب ان ما كنت اتناوله من نقود منها كان يشكل نصف ايرادها ، ولهذا فقد كنت في رأيها مسرفاً عاطلا يعيش على عرق جبين امرأة وكنت اصبر على مضض ، واتركها على اعتقادها في اسرافي كي لا تعلم انني اجوع ، فالمسرف المبـذر لا يعرف الجوع قط ، وكم كانت تسيل الدموع الصامتة من بين اصابعي حين اتذكر هذه المرأة الهادئة الرقيقة التي احالتها قسوة الحياة بعـد وفاة زوجها الى امرأة قاسية حقودة تقول لنا انها تود لو تقتلنا بالرصاص واحداً واحداً كي تستريح من شقائها ، والحق انها ان فعلت هذا فلأنها تريد راحتنا لا راحتها هي ، بل كنت بالغ الثقة انها لو فعلت هذا لقضت ما تبقى من عمرها في نحيب لا ينقطع ، وكم كان سهلا علي حين اقرأ رسالتها القاسية ان اكتشف دموعها الجافة تلتمع من وراء السطور . .

ولم يكتمل الشقاء والحرمان الا حين دخلت مها الى حياتي .

كان اول عهدي بها ذات صباح جميل كنت اسير فيه الى معهدي ، ومن خلال النسيم البارد كنت ارى كل شيء جديداً ولكنني كنت اغمض عيني لحظات قصيرة – مدفوعاً بتفكيري الساخر المرير – كي اتخيل زوال هذا الجمال عند قدوم الحر بعد ساعات قليلة . !

كان كل شيء امامي يتحرك ، ومن بين هذا كله رأيت ثلاث فتيات يانعات يحملن كتبهن ويتحدثن في مرح وهن يسرن مسرعات ، واخذت خطواتي تتباطأ كلما ازداد اقترابهن مني ، وحين اصبحن امامي وجهاً لوجه ، لوحت وسطاهن بيدها في



حركة جذابة ساحرة ، ثم سمعت ضحكتها الصافية الفضية تدخل في اعماق صدري المحروم ... دوت كالعطر الخاطف ..

ومنذ ذلك اليوم احببتها ..

كنت اقول لنفسي في احيان كثيرة ان حبي لها لم يكن الا وليد المناسبات والظروف التي احاطت بهذا اللقاء الاول، فلو كنت متعباً مريضاً لما لفتت نظري قط ، ولـئن كانت واحدة من عشر فتيات يحدثنني لزهدت فيها ، فكأني لا احبها بل احب المرأة عموماً ، وكان هذا التشريح والتحليل بطبيعة عاطفتي يزيدني ضيقاً بهذا الحب الذي لا يريـد ان ينقص ذرة واحدة ...

وفي احيان اخرى كانت تطرأ علي افكار غريبة ، فقد كنت ارجح مثلا ان سبب شرارة هذا الحب انها كانت تتوسط زميلتيها كما لو كانت توحي لي بالكمال والتفوق عليهن ، فلو كان ترتيبها جانبياً لوقعت في غرام زميلتها الوسطى بدلا منها والحق اني لم اكن احمل مثل هذه الافكار الحمقاء الا لانني كنت احس بان هذا الحب قد نزل علي تماماً كالداء الذي لا رغبة للمرء فيه بالاضافة الى انه لا حيلة له في دفعه ..

ورغم هذا فقد كانت تبدو لي متألقة عالية كنجم القطب ولعل هذا بسبب اسرتها الثرية ، وكنت قانعاً بأملي اذ لم افكر مطلقاً ان ابعث لها برسالة غرام ، او ان احدثها وهي سائرة في الطريق ، فقد كنت اخشى ان تزول هذه الصورة السامية التي رسمتها لها حين اخطو في علاقتي معها خطوة جديدة ،فارى منها ما لا يرضيني ، وكنت في هذا شبيهاً بصديقي الذي احب فتاة بالمراسلة من امريكا وكان اشد ما يخشاه ان ترسل صورتها له ، لانها ستزيل كل ما رسمه لها في مخيلته ...

وفي الشهور الاخيرة التي تسبق الامتحان ، ينزوي الطلبة في بيوتهم للاستعداد له ، وللمرة الاولى احسست ان النجاح في الامتحان امر شاق غامض فيه شيء من السحر ، فصورة القديسة كنت اراها على صفحات الكتاب طوال الوقت ، وكنت احسب اذ قرأت كتاب الادب العربي ان جميع قصائد الغزل التي فيه كانت تصف فتيات شبيهات تماماً (لها) . وكنت حين أنظر من نافذتي الارضية الرطبة ابحث عنها بين المارة كما لو أن منزلها ليس على بعد ميل واحد من غرفتي . .

ولم اكن في شوق دائم لرؤيتها ، اذ كنت قانعاً بهذا الحب الذي اعيش به في هدوء بعيداً عنها ، ثم يزول رويداً رويداً مع الزمن دون ان ادري . والساعات القليلة التي كان يملؤني فيها ، عندما أراها تشرف على المارة، فلا أجسر على رفع رأسي نحوها ، كما لو كانت تنظر الي وحـدي وانا اتسكع بقذارتي وغبائي . وحين ابقى وانا مهزوم الاوصال والعرق يبللني احس كأنني فقدت حياتي مرة اخرى .

وقبل ان ادخل الامتحان كان يتحتم علي ان اتقدم بالاوراق اللازمة ومن بينها بعض الصور الشخصية ، وسمعت من بعض زملائي ان هناك مصور فنان صديق للطلبة ، فاغراني هـذا بالحصول على تخفيض منه كسائر زملائي ، وحين ذهبت الى مقر عمله ، لم اجد غير (البواب) وهو يخبرني ان المصور قد ذهب لتناول طعام الغداء وسيعود بعد قليل ، ولم يكن هناك مكان استطيع ان اقضي فيه وقتي في هذه المدينة الساكنة التي تمأوها الشمس ، ولهذا جلست انتظر .

ولست ادري كيف امتد بنا الحديث الى حد رجوت منه ان استعرض الصور الفنية المعروضة على جدران (الاستديو) فلم يمانع . وجررت قدماي الجائعتين وابتسامتي المتعبة من صورة الى صورة : شحاذ رأسه مائل في نظرات متكسرة، ثم سيدة انيقة فاتنة في خمار شرقي ، ثم شاب دعي في وضع جانبي وتتدلى من طرف فمه لفافة تبغ تكفل له الشهرة السينمائية التي يجري وراءها ، ثم سيدة وابنها ملتصقان في حنان غريب ، ثم طفلة صغيرة راكعة يتدلى الصليب من بين جدائل شعرها ،وهي تصلي قبل النوم على ضوء شمعة صافية الضياء ، ثم .. يا رب...

لقد كانت هناك .. وعيناها الخضراوان تضحكان تلك الضحكة الفضية العميقة وحولها زميلتاها مرة واخرى ، حدث هذا كله في لحظة خاطفة، ثم لم اعد ارى شيئاً كما لو كنت انظر الى الصورة من وراء ستار شفاف من الماء ، ثم اخذ المـاء يتماوج رويداً رويداً ، وبدأت الصورة تزداد وضوحاً ، الى ان شعرت بيدي تتناول منديلي لتزيل حبات العرق البارد التي ترطب حاجبي . – اعوذ بالله من هذا الحر ...

قالها وسمعت خطواته تدب نحو غرفة مظلمة صغيرة قد اسدل عليها ستار اسود ، ثم صوت الماء وهو يصبه على جسمه ليتوضأ. ولم أفكر اطلاقاً اذ قبل ان افعل هذا كانت يدي قد امتدت الى الصورة تتلمسها : كانت متوسطة الحجم لاصقة بقطعة من الورق المقوى ، وكانت ازالتها تترك فراغاً ملحوظاً في الحائط للعين الفاحصة كعين البواب ، وما ان تذكرت هذا حتى مثل

في خاطري وجه البواب الرصين ، وشاربه الذي يوحي الك باخلاق اهل الصعيد الصلبة ، فسرت في جسدي رعدة قاسية ..

انتزعت الصورة من مكانها ثم اخفيتها تحت سترتي ، ولم انظر ورائي ابداً . فقد كنت اخشى ان اراه وهو ينظر الي لو انتبه الى ما افعله ، ثم سرت دون ان ادري نحو الباب بخطوات بطيئة تسارعت بعد ان حجبني باب الاستديو . وخرجت الى الطريق العام فبهرني ضوء الشمس وكأنه كشف عن كل قطعة من جلدي ، ورأيت الناس ينظرون الي في شك ، فوضعت يدي في جيبي – كاي رجل عادي – متظاهراً بقلة الاكتراث . وحاولت ان اصفر بفمي لحناً شعبياً شائعاً فلم استطع ، فاعتراني الخوف واسرعت الخطى ، وفجأة توجه احساسي كله الى يدي التي اختبأت في جيبي ، ومرت لحظات ذاهلة مميتة قبل ان افهم انها فارغة ..

توقف الدم في عروقي عن الجريان فتحسست جيوبي كلها ثم دفعت يدي في جيب سترتي الداخلي .. لا .. انا اعلم انها مثقوبة ولهذا فلا اذكر انني وضعت فيها نقوداً .. ها .. انها في الاستديو .. لقد سقطت مني حين مسحت العرق عن جبيني ..

تسمرت كالعود الجاف ، حتى الزمن كان قد توقف ، وفي تلك اللحظة تماماً سمعت صوته .. صوته هو ، وكان يصيح من بعيد – انت يا استاذ .. قف من فضلك .. اسمع .. انت يا افندي ...

هرولت ، ثم ظهرت سيارة عمومية وقفت في محطتها على بعد عشرين متراً فعدوت وراءها .. اسمع .. انت يا استاذ .. وقفزت الى السيارة المتحركة وفي داخلي هدير لا يوصف ..

لا يعلم غير الله وحده عما اذا كان ذاك الرجل يناديني كي يرد الي نقودي الضائعة ، ام لانه اكتشف فراغاً في الحائط ، ان معرفة هذه الحقيقة الرهيبة حقاً ، ولن استطيع مواجهتها ثانية قط ..

جاء محصل التذاكر فدفعت اليه بقرش من القروش القليلة الباقية في جيبي ، ثم نظرت من النافذة وتاه وجهي في الفضاء حين تخيلت الجوع القادم والسهر الطويل والجنيهين الضائعين ، واهانات والدتي في رجولتي ، وارى اشجار الطريق الخضراء الزاهية تتدافع سريعاً امام ناظري ، فاشيح عنها بوجهي وفي احدى عيني دمعة كبيرة ..

القاهرة — محمد احمد رمضان

حياتنا للموت

بقلم رضوان ابراهيم

✡

طين ذلك اللحد صيغ من تراب الاجيال ، وتمطى كالقذاة في عين الزمن ..

رهيبا يفزع طيور الاحياء ان تستقر في عشاش الحياة اسود .. تحجه المواكب دامعة وتعود حسرى ..

وترتدعنه الوفود ظامئة يلهبها الاسى وتلذعها اشواك الهاوية؟!

لمن ذلك الخفير التام من مهين الثرى ومنبوذ الرجام وجديب العراء وداوي المخاوف ؟!!

لمن تلك الرجام انتثرت في الارض ، فاعترضت الافق ، واخذت على الاحياء مسالكهم ،

وفغرت افواهها ، تتلقف الحياة وتبتلعها في قسوة لا تترفق ، وعنف لا يرحم ؟!!

ما نصيبي من دنياي وانا اخطو على طريق هذا النزل ، وادرج على اعتابه ، لأغدو ذرات من الهباء ، تطير مع الهبوب تسخر منها الرياح ، وتسخر هي من احلام الاحياء ، وتهزأ بامانيهم؟؟

على تلك الاعتاب تتضاءل احلام الحياة وتتعثر ، ثم تنتثر على التراب فتتهشم ، فاذا هي فارغة من المعاني الجميلة ، واذا الالوان الوردية والعطور الشذية هباء ، ورسوم على الماء !!

واذا الحقيقة الواحدة هنا .. وكل ما هنالك اوهام ضالة في فضاء مضطرب ، واباطيل يتعلل بها من يضطربون في امواج الحياة ، تهتف بها السنتهم ، وتتعلق بركابها ايديهم .. ثم ينظرون فاذا هي واذا هم قد انطفأوا في لمحة ، وانحدروا الى حيث تبتلعهم الارض ،

واذا هم قابضون على حفنة من ترابها !!

فما الحياة من بعد ؟ وما الاحياء ؟

ما الحياة الطويلة العريضة المندفعة القوية الجبارة الغلابة ، ما دامت تقتنصها حفرة ، وتطمرها حفنة ، وتحتويها هوة ؟!

انا متشائم . متشائم اخشى ان افرح باشعة الصباح الباسمة ، حتى لا يحزنني افولها وهي تحتضر على فراش الغروب ..

.. في موكب الصباح الزاهر اشفق على الشمس ان يطويها ظلام الليل .. كأنه ليس لها ضحى ولا ظهيرة ولا هجير ولا اصيل .. انما هي من ظلام خرجت والى الظلام تعود ! !

انا متشائم .. متشائم لا القي حياتي بذورا في التربة حتى لا تتخطفها الطير او تمسكها الارض .. كأن لن يخرج من الثرى نبت يانع ، ولا زهر نضير ، ولا اعواد مثقلة بسنابلها تحمل الى الاحياء اكسير الحياة ! !

انا يائس من عدل الحياة .. كأن ليس بين الاحياء من تناصبه عداءها وتمنعه مودتها الا انا ذلك المخلوق الصغير !!

فمن ترى اكون انا ؟؟

من انا .. وهذي عيني تأبى ان تنظر الى الزهر ، لانها لا ترى اوراقه الناعمة الزاهية النضيرة الا ستاراً يخفي وراءه الاشواك الجارحة ؟؟

من انا .. وهذي يدي تخشى ان تمتد الى وردة تقطفها ، لان الفكر يسبق اليها الزمن، فيراها ذابلة مبعثرة على الثرى .. لا بهجة ، ولا رواء ، ولا شذى !!

كلما سمعت بشرى ميلاد ضاحك يبهج ويسر ، تساءلت : متى ينعاه النعاة ؟

وكلما رأيت بناء يتعالى ، قلت : متى يترنح فينهار ؟

وكلما شاهدت عرساً راقصاً اجتمع فيه شمل الفين في ظلال حب سعيد ..

افكر متى ينفض السامر ، ويسود السهوم ، وتحل الهموم والنكبات والاسى محل الهوى والوئام ؟؟

يا حياتي .. انت لي بئس العذاب ، وانا لك بئس القرين!!

كيف التقينا ؟ ولماذا ؟ لا ادري !!

ومتى نفترق ، فيستريح كلانا ؟ لا ادري ، ولا تدرين !!

منذ آلاف السنين .. وعلى لوحة الرمال خططت اسمي بمداد قلمي ، وقعدت مستأنيا ان ينبثق فيه نبع من حرارة الحياة يخضل تربة الشاطيء ، فتينع فيها افنان الامل والمحبة والسعادة ، وتزدهر فيها انوار الربيع الدافيء المضمخ بعطور الصباح ..

... وتعالى صرح الامل شامخاً ، ينهد للسحاب ، ويبرز للاقدار ، ويزحم آفاق الفضاء ..

.. وانتصب الحرص حوله سياجاً يدافع دونه كيد العوادي ، ويدمي انامل اليأس اذا تلمسته .

ولكنها فجأة خاطفة ، فزعت الاحلام ، واحالت شامخ صروحها هباء .. لحظة امتد لسان البحر في هسيس خافت الى رمال الشاطيء ، فمحا منابع الآمال ، وطمس ما خططت على الرمل ، ثم ذهب غير آبه ، كأسد يلعق شفتيه بعد فريسة شهية ، ثم قهقه مزهواً بالنصر الاكبر على احلام الحالمين في ضحوة الحياة .

وفي جلجلة الامواج العائدة عودة المنتصر تلفت اتساءل عما خططته بالامس على الرمال ، فلم اجد الا حباتها الصامتة الصماء ، دامية تنبيء عن اثار المعركة الحاسمة .

وسرت في الناس مشردا .. بلا اسم ولا أمل ، اسائلهم : من أنا ؟ فلا يعرفون ، ولا يأبهون ، واستنبئهم : اين آمالي ؟ فلا يسمعون ، ولا يكترثون ..

انا ألح في تساؤلي ، وهم يمعنون في تجاهلهم !!

ويا ويلي .. اذا لم اجد فيهم الدليل ، ولم اجد عندهم الامل ! !

يا ويلي .. اذ اودعت آمالي رمال الشاطيء ، فلم يحتفظ بها ، بل اودعها لدى البحر ، فاسلمها البحر للسحاب ، وبددها السحاب مع الرياح ! !

يا ويل من شيع آماله الى حيث لا يدري ، ثم عاش من بعدها .. يحصد طاقات الشوك ، ثم ينثرها في طريق حياته التي يعدو بها لاهثاً يحمل اثقالها الى حيث لا يدري اين ومتى يحط اوزاره ويستريح !!

القاهرة رضوان ابراهيم

الموسيقى عند اخوان الصفاء

بقلم فؤاد البعلي

اذا كان الكثيرون من الفلاسفة ، ومنهم فلاسفة الاسلام ، قد اغفلوا تأثير الموسيقى في النفوس ، فان اخوان الصفاء لم ينسوا ذلك ، بل كتبوا رسالة خاصة بالموسيقى ١) ابدوا فيها كثيراً من الآراء القيمة التي تأخذ بها التربية الحديثة اليوم .

وليست لدينا ادلة كافية على ان كتاب «السياسة» لارسطو — وفيه فصل عن الموسيقى وتأثيرها في الناشئة — قد وصل الى اخوان الصفاء او ترجم في عهدهم او قبل ظهورهم . ولذلك يمكننا ان نقول ان اخوان الصفـــاء تأثروا « في بحثهم عن الموسيقى » بالفيثاغوريين ، يبدو هذا واضحاً عند الكلام على انغام الافلاك ، واسباب هذه الانغام .. الخ .

هذا الدليل لا يكفي ، لذلك نستطيع ان نقول ان بعض المترجمات التي تبحث في فلسفة الفيثاغوريين والتي وصلت الى العرب ، وكذلك التلاميذ الذين كانوا يأتون من سوريا وآسيا الصغرى والبلاد المجاورة للدراسة على يد فيثاغوراس ، هـذا وغيره قد يقيم دليلا على مدى تأثير الفكر الفيثاغوري على افكار اخوان الصفاء لاسيما وقد كان الفيثاغوريون يشكلون جماعة سرية ايضاً .

اننا نرى ، ان فيثاغوراس نفسه كان متأثراً بالنحلة الاورفية ، ولعل هذه النحلة قد تأثرت بالبابليين ، ذلك ان الفرس عندما اغاروا على البلاد اليونانية كان معهم الكثيرون من البابليين . واخوان الصفاء اذ يعرضون هذه الافكار ، انما يقدمون

١) لاخوان الصفاء رسالة خاصة بالموسيقى ، لم تعرف من قبل عام ٣٣٤ هـ. بحثوا فيها عن كيفية ادراك القوة السامعة للاصوات ، وفي امتزاج الاصوات وتنافرها ، وفي كيفية صناعة الالات الموسيقية ، وفي تشبيه حركات الافلاك بانغام .. ، ثم تنتهي الرسالة بذكر بعض نوادر الفلاسفة في الموسيقى .

لنا آثاراً للفيثاغوريين عظيمة تكاد تنطمر . وما يهمنا بحثه هنا هو اثر الموسيقى في التربية ، وتأثيرهـا في النفوس مع اهمية استعمالها في شتى المجالات .

***

يقدس اخوان الصفاء الموسيقى ، فهي عنـــدهم صناعة استخرجها الحكماء بحكمتهم ورويتهـم ، ومنهم تعلمها الناس وتأثروا بها ، ومما يدل على تقدير الناس لها انها كانت «ولا تزال» تستعمل في الهياكل وبيوت العبادات وعند القرابين ، والامثلة على ذلك كثيرة ، كالنبي داود الذي كان يستعملها عند قراءة مزاميره ، ويستعملها المسيحيون في الكنائس ، والمسلمون في المساجد «من طيب النغمة ولحن القراءة» عند تلاوة القرآن ، اذ ان هذه الموسيقى تبعث في النفوس شعوراً بالخشوع . كما انها تزيد من رقة القلوب والعواطف . ان اخوان الصفاء لم ينكروا قط ان للموسيقى تأثيرات مختلفة في نفوس مستمعيها ، ما دامت لذات تلك النفوس مختلفة ثم ان تأثيراتها في النفوس تظهر واضحة عند استعمالها في حفلات الافراح والولائم والاعراس ، وتظهر كذلك عند ظهور المصائب والاحزان وفي المآتم ١)

ان من الالحان والانغام ما يثير الاحقاد ويحرك النفوس ويلهب فيها نيران الغضب والسخط . كما ان منها ما يسكن نيران ذلك الغضب والسخط ويبعد الاحقاد ويدعو الى الاخاء والمحبة والهدوء . ويأتي الاخوان الصغار بمثل او بقصة طريفة هي انه حدث ان اجتمع رجلان متخاصمان متغاضبان كانت بينهما منازعات كثيرة ، وخلافات جمة ، واحقاد مستمرة ، في مجلس للشراب . فلما دارت كؤوس الخمر بينهما عـــادت العداوة الى ما كانت عليه ، فالتهبت في نفسيهما نيران الغضب والحقد ، فاراد كل منهما ان يضرب ويقتل صاحبه ، فحدث ان

١) انظر رسائل اخوان الصفاء . ج ١ : ١٣٤ ، ١٧٩

كان هناك موسيقار ماهر ، شعر بامرهما ، فما كان منه الا ان عزف الحانا هادئة مسكنة ، جعلتهما يهدآن ، واستمر في العزف حتى سكنت سورة الغضب عنهما ، وابتعد الحقد . فقاما وتعانقا وتصالحا [1] .

وهم لا ينكرون اثر المزاج والطباع ، فيقولون ان « لكل مزاج نغمة تشاكلها ولحن يلائمها » [2] وعلى هذا اختلفت الالحان والنغمات باختلاف امم الناس وامزجتهم وطباعهم ، وكان من نتيجة هذا ان صارت لكل امة من الامم الحان ونغمات خاصة بها . ان اي امة اذا استمعت الى انغامها والحانها ، فانها تجد لذة وسروراً قد لا يجدها غيرها . وغير هذا فان في الامة الواحدة نفسها فريقاً يحب نغماً ولحناً معيناً يلتذ به وقد لا يجد لذة في غيره ، وآخر يحب لحناً آخر .. وهكذا . وغير هذا وذاك ، فان الانسان الواحد نفسه يلتذ بلحن ما يحبه في وقت ما ، ثم لا يلتذ به ولا يحبه في وقت بل قد يتألم عند سماعه او يكرهه . ولا شك في ان هذا ما نلاحظه نحن على انفسنا في كل وقت [3] اي ان رأيهم هذا لا يبعد عن الحقيقة ابداً .

***

ان اخوان الصفاء يحثون الناس على تعلم الموسيقى او الاستماع والتقرب اليها . ذلك انها – على حقيقتها – تهذب النفوس ، وترهف الحس ، وتؤدي الى رقة العواطف والشعور ، وهذه تؤدي – بدورها – الى ان يتمتع الانسان باخلاق هادئة فيها الرزانة والحكمة والروية والتؤدة ، كما انها تحدد نوع علاقاته باخوانه وزملائه ومن يحيط به من المخلوقات .

والموسيقى –عندهم– دواء النفس الذي يشفيها من آلامها ومحنها واخطائها . واذا علمنا ان الطب الحديث يقول بتأثير الموسيقى على اجهزة الجسم ، وينصح به في حالات مرضية كثيرة ، واذا علمنا ان التربية الحديثة تقول باهميتها في تهذيب الاخلاق والنفوس ، ادركنا كم كانت آراء اخوان الصفاء قيمة في هذا الموضوع .

بغداد فؤاد الجملي

1) رسائل الاخوان ج ١ : ١٣٣ 2) ج ١ : ١٦٣ . ج ٣ : ٢٦٧
3) ج ١ : ١٦٣

عمـق

☆

كالعملاق المخضّب
تنتصب ، وتعربد !
وفي جوف الليل
تنفث فحيح العدم !
ارعن ، ابله ،
معتوه !
الليالي عميقة
والايام خرساء
الظلام متخاوف
في العين !
والنداء متهاوت
في الاذن !
فماذا تريد ؟
اغرب كالافعى
في جوف الليل
ايها الارعن ..
ايها المعتوه . .
فالليل عميق
ينفجر فيه الفجر
... فجر يموت
والاضواء ...
تسخر .. لا تبالي
في جنون !

حلب توفيق اليازجي

شرع الحياة

✥

أتى الليل يا شاعري وانطوت معالم ذاك الضياء القريب
وغاب النهار كحلم سرى بليل بعيد الخيال كئيب
وكنت قضيت نهاري سدى اشق دروباً واطوي دروب
أحث خطاي كمجنونة واركض حتى اتاني الغروب
افتش عنك وما من رؤى واسأل عنك وما من مجيب
ولكن بي املا باسماً كزهر الصباح ، ندياً رطيب
يعطر جرحي ويطفىء رعبي ويغمرني بانتشاء عجيب
ويدفعني لاجتياز الصعاب كأني طير طليق طروب
فألمح بين زوايا الخيال خيالك يدنو قريباً مهيب
وامضي اصور حلم اللقاء وما سأقول وما ستجيب
وطوراً اشق سفوح التلال وبي في الجوانح اي شبوب
وطوراً اهيم بحضن المروج اعانق صدر الرياض الرحيب
انادي وأسأل طيف الربى « اتدرين اين يكون الحبيب ؟ »

وجاء المساء ولما أزل أهيم واطوي فيافي الوجود
وقد بحّ صوتي وكلت خطاي وما من مجيب ومامن جديد
احدّق كي اجتلي عالمي وفي مقلتيّ ذهول شريد
وقد جلل الارض صمت عميق وهوّم فيها فراغ مديد
أرى الكون حقلا قدير البلى أمات ثماراً وحطم عود
تدور به لفحات الرياح مرور الفناء القوي العنيد
فتخرس هذي وترعش ذا وتصحب ما تشتهي او تريد
وتسقط سحب على ارضه فتضعف منه القوى والجهود
وتمضي الجداول في سيرها ببطء السلاحف طي الحدود
ويعلق وسط السما مقمرٌ تكاد دماه تقول : شهيد !
وتجري النجوم على صدره كدمع تناثر فوق الخدود
فتعكس مرآه في خاطري خيال الزوال ورؤيا اللحود
ومن ثم اعثر في موضعي وأهوى ... ويطغي علي الجمود
واشعر ان عظامي بها تآكل سوسٍ ... تناخر دود .

وجاء الصباح . وما من صباح دجيّ الضياء . كثيف السحب
وكنت اظن حياتي غدت غداة رحيلك لا تحتسب
فما كنتُ الا حطاماً ثوى وجنياً تهاوى سريع العطب
وما كان بعدك لي من بقاء وما كان لي في الورى من ارب
فرحت اعاتب طيف الفناء « تأمل صنيعك بي عن كثب
فآثار كفك فوق الجبين وطعم كؤوسك لا تغترب
وهذا خيالك بين العيون ونبرات صوتك لي تنتسب
وقفت تصارعني في الحياة قوي السواعد . جهماً . غضب
كأنك تحسب هذا الضعيف اذا هاجمته المنايا غَلب
كأنك تحسب ان بقلبي خفقة حسٍّ به قد تثب .. ! »
أجل ! رحت اهذي لطيف الردى غداة رحيلك يا من احب !
وما كنت ادرك شرع الحياة وسنّة هذا الوجود العجب
فاذ بي اخدع فيما اقول وان كنت اصدق فيما وجب
واذ بيَ آكل ما اشتهي واظما ... وألبس ما انتخب
واذ بي اخر يمّ الحياة وفي جناني شعور وحب ...
واذ بي اسعى حثيثاً الى بلوغ الاماني ... ونيل الطلب ..
فما انفه العيش يا شاعري ! واظلمه ! تحت هذي الحجب !

القاهرة

جليلة رضا



شوقي شاعر العصر الحديث

للدكتور شوقي ضيف – ٣١١ صفحة – منشورات دار المعارف بمصر

لا بد من نظرة جدية جديدة خالصة لوجه الدراسة العلمية، نلقيها على ادبنا الحديث، معرضين عما تحكم به المعاصرة من هجنة المنافسة والتباغض في نفوس الخصوم، وما تبثه من اعجاب ومبالغة وعصبية عند الاصدقاء، ولا بد ان نرتفع بالدراسة الادبية عن مستوى التقريظ والذم وان نبرئها من توافه المقالة الصحفية في تسرعها وسطحيتها. وعلى عواتق الدارسين في الادب الحديث تقع التبعة الكبرى في تصحيح الاوضاع المعوجة الجائرة، المؤسسة على غير القصد، المتأرجحة بين طرفي التقريظ المسرف والتجريح المستبد، فمثل هذا الشطط جناية ذات اثر مرير على روح الدراسة الادبية، وعلى قداسة النقد النزيه.

ومن ثم كانت هذه الدراسة التي قام بها استاذنا الدكتور شوقي ضيف عن شوقي الشاعر، مثار امل حي في نفوس المتطلعين الى نزاهة الناقد وتعمق الباحث، وسلامة الحكم، وعدالة المقصد. والدكتور ضيف كفيل بتحقيق ذلك كله لانه قد تجمعت في يده جميع ادوات الناقد الصحيح، وفي الفصول الاربعة التي قام عليها كتابه ميزتان كبيرتان اولاهما هذا الامتاع الذي يجده القارىء في عرض الآراء ومناقشتها واثارة المسائل وحلها وهو امتاع ميسر سائغ لا تفقد فيه الحقائق صورتها لما يكمن فيه من براعة في الطريقة ووضوح في الفكرة واعتدال في التصوير، وسيحس القارىء لهذا الكتاب ان الآراء تعرض فيه في انطلاق ويسر ويمتلىء اعجابا بهذه الناحية وان خيل اليه احيانا انه يخالف المؤلف في احكامه. اما الميزة الثانية فهي محاولة الانصاف وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف في مقدمة كتابه « ولم ادخر وسعاً في ان احق الحق حين يجب احقاقه، واذاعته في غير محاباة لشوقي ولا تجن على غيره فنحن لم نضع هذا البحث تشيعاً لانصاره وكذلك لم نضعه تعصباً لخصومه، وانما وضعناه ابتغاء تقويم شعره من جميع اطرافه تقويماً صحيحاً دقيقاً » .

وهذه محاولة جميلة في سبيل الانصاف؛ وانما أسميها محاولة لان الانصاف المجرد امر عسير تحقيقه، ولان الدكتور ضيف قد بث في كتابه بعض الاحكام الذاتية فابتعد احياناً عن الدائرة الموضوعية كأن يقول وهو يتحدث عن قصيدة شوقي في وصف النيل « ولا ريب في ان هذه القصيدة ام ديوانه الثانية واني اقرؤها الان فاشعر ان من واجب كل مصري ان يكتبها ويعلقها في غرفة استقباله وفي ذاكرته وفاء لهذا الشاعر، وكأني به مزماراً كمزمار داود ارسلته ربة الشعر ليجسم للمصريين تاريخهم بل ليحضره ويصوغه تماثيل .... وليست قصيدة أبي الهول الا تعويذة ينبغي ان يضمها كل مصري الى صدره وهو يستعرض فيها مواكب التاريخ التي مرت تحت عيني أبي الهول » . ومثل هذه الاقوال امعان في تقدير الشعر على غير اساس نقدي واضح الا الاعجاب المحض .

غير ان استاذنا لا يمضي في دراسته على هذا النحو – الا قليلاً – لانا نجده لا يمر مروراً هيناً بنقائص شوقي . ومن يقرأ الفصل الاول عن حياة الشاعر يلمس كيف يصرح الدكتور ضيف بآرائه في عبودية شوقي للقصر وفي تقصيره الفاضح ازاء الحركات الوطنية، حتى انه لم يرث صديقه مصطفى كامل الا بعد ان أمن على نفسه من سخط الخديوي . ويقول الدكتور ضيف في هذا الصدد: «فشوقي شاعر القصر وهو لا يهتم بالجمهور ولا بالشعب الا حين يجد القصر راضياً عن ذلك، وقلما كان يرضى القصر، فالقصر، مشغول بنفسه، وشوقي مشغول به وبالخديوي يمدحه في كل مناسبة: في العيد وفي ذكرى جلوسه على عرش مصر وفي ميلاده وحجه وزيارته وهو يوجهه حيث يشاء ويتجه معه شوقي حيث يريد وكأنه ليس له ارادة فارادة اميره هي العليا وهي التي تحركه وتقذف به كالكرة يميناً وشمالاً» ويقول ايضاً في شعر شوقي: «فشعره ينحبس كثيراً في اقفاص ضيقة من حوادث وقتية كان ينبغي الا يشغل بها نفسه لانه ليس صحفياً كما تصور ولا يقع عليه اي واجب من واجبات الصحفي في عصرنا، انما هو شاعر من حقه ان يحلق في اجواء الفن العليا. منفصلاً عن

حدود المكان وملقياً عن كاهله حواجز الزمان ، واننا لنأسى لهذه الثروة الكبيرة من شاعرية شوقي التي أضاعها فيما بين يديه من مناسبات ضيقة ، كما نأسى لهذا الفيض العظيم من نيلنا الذي يتلاشى ويفنى سنوياً في بحر الروم دون ان نفيد منه فوائد محققة » . ولو استرسلت في الاقتباس لوجدت كثيراً من هذه الوقفات في نقد شوقي ، ولذلك كانت هذه الدراسة اقرب شيء الى روح الانصاف والاعتدال . ولولا ان استاذنا الدكتور ضيف قد خرج ابتداء بالنتيجة التي بني عليها دراسته وهي « ان شوقي شاعر عظيم كفلته ربة الشعر ويسرت له العبقرية » - لولا ذلك لما احتاج الى شيء من تلك اللفتات الذاتية التي فوتت علينا بعض الدقة في الحكم على شاعرية شوقي.

وتعليل العظمة في شوقي الشاعر وتحليل مجالاتها من اشق الامور فقد تحس النفس جملة بشيء من الاعجاب نحو شاعر من الشعراء حتى اذا جاءت تعلل لقضية تحسها مبهمة وجدت الجزئيات لا تساعد على اثبات القضية الكبرى ، وقد كانت بيعة شوقي بامارة الشعر دليلا على ان المقاييس النقدية التي تجري على الشعر منذ ستة عشر قرناً لا تزال كما هي دون تغيير كبير في نفوس أهل الشرق الادنى ،فشوقي خاتمة للقديم بحق كما يصوره الدكتور ضيف ولكن : هل من الحق ان نعقد هذا المقياس في الحكم على شوقي حتى اليوم ؟ أحقاً ان موسيقى الشعر تكفي لتجعل من شوقي شاعر العصر الحديث ؟ يخيل الي ان الدكتور ضيف في دراسته للقصيدة عند شوقي قد ابعد المقاييس الحديثة من حسابه وحكم على شاعرية شوقي في حدود ظروفه وبيئته .

ولكن هذه الدراسة نفسها تثير شيئاً كثيراً من الشك حول عظمة الشاعر شوقي ، عبد القصر ، الكثير التقليد والمعارضة ، الشاعر الذي لم يلتفت الى نفسه في شعره ،الشاعر الذي لم يتحول في شعره الى موضوع انساني عام او الى وصف جمال الطبيعة وغرق في المناسبات ، الشاعر الذي اصبحت المسرحية في يديه قصائد غنائية ضعيفة في التشخيص والحبكة الفنية «وظهرت عيوبه في المسرحية واضحة ، وظهر انه ليس لديه نظرات بعينها متناسقة في الحياة وانما هي آراء يغلب عليها ان تكون حكماً منثورة ولا تأخذ شكل تأملات وخبرات او تجارب عميقة » (ص ٢٨٨) . ترى ماذا بقي بعد ذلك ؟ لقد اثنى الدكتور ضيف على «الغنائية» في شعر شوقي ومسرحياته ، ومجّد الروعة الموسيقية في ذلك الشعر ، واعتذر عن عدم التفات الشاعر الى نفسه بانه غيري لا ذاتي ، وصرح بانه على خير حالاته اصالة حين يعارض غيره ويجري في ركابه ، ولكن لا اخالني ابعد عن الحق ان قلت : ان قدرة الدكتور ضيف وبراعته يغطيان على نقائص شوقي ويعتذران عنها ، ومن براعة الدكتور ضيف انه الحق شوقي بركب الاقدمين وحكم عليه بما يحكم به على شاعر كالمتنبي والبحتري ورفض ان يتحدث عن وحدة القصيدة والانسجام بين الشكل والموضوع والاخلاص للفن ، وعمق التجربة وصدقها ، وغير ذلك من مقاييسنا الحديثة .

على ان المقاييس الحديثة لا تختفي طويلا في هذه الدراسة ولا تلبث ان تقتحم على الشاعر اسوار القديم وخاصة حين اسهب الدكتور ضيف في انشاء العلاقة بين شوقي والجمهور بعد عودة الشاعر من الاندلس ، ووصف النزعات الوطنية والعروبة في شعره وحكم عليه بعد الافاضة في هذه الناحية بقوله «ولعل في هذا ما يوضح كيف ان شوقي لم يتطور بالشعر العربي تطوراً شعبياً كاملا ، تطور به ، ولكن تطوره كان ناقصاً وخاصة فيما يتصل بالصياغة » .

ووجدت المقاييس الحديثة مجالها الرحب في دراسة المسرحيات اعني في الفصل الرابع من الكتاب ، فقد حللت روايات شوقي تحليلا دقيقاً وابرزت حسناتها وعيوبها جملة وتفصيلا ، وبهذا الفصل البارع الدقيق توجت هذه الدراسة الممتعة . ومن شاء ان يقرأ بحثاً في غاية الاصالة والوضوح عن التشخيص والعنصر الاخلاقي والعقدة الروائية والجانب الفكاهي والغنائي في المسرحية عند شوقي ، ومن شاء ان يطلع على مميزات شوقي وعيوبه دون تلوين او تبرير فانه واجد في هذا الفصل تحقيق ما يريد . وقد سلطت اضواء النقد في هذا الفصل على الملهاة عند شوقي كما سلطت على المأساة ، وحول ملهاة (الست هدى) نجد بحثاً دقيقاً منظماً لكوميديا لم تطبع بعد ، ولم يتعرض لها النقاد من قبل .

ولقد اصاب الدكتور الناقد حين اتخذ من القصيدة عند شوقي مجالا لبحثه فتتبع تطورها منذ نشأتها على يديه نغمة تقليدية الى ان اصبحت في النهاية قصيدة او قصائد غنائية حوارية تسمى المسرحيات . اما حياة الشاعر فقد اجملها في الفصل الاول ، ولم يقرن كثيراً بين تطور الحياة وتطور العقيدة ، وهذا في دراسة شوقي شيء طبيعي ،فان تلك السلسلة من السنوات التي مرت بين اول الشوط وآخره - بين شوقي شاعر الامير

وشوقي امير الشعراء - لم تكن الا حياة تافهة ليس فيها معنى التلازم بين الحياة الشخصية والحياة الفنية، وليس فيها من الاحداث ما يصهر الشخصية او يتطور بها او يملأ آفاقها بتجارب عميقة، ولذلك كان الاتجاه الى دراسة القصيدة اجدى على النقد من دراسة حياة الشاعر. وفي تصوير الصناعة الشعرية عند شوقي في الفصل الثاني من الكتاب التفاتة لم يسبق ان عني بها الدارسون في الادب العربي عناية اكيدة مخلصة، وتلك هي تسجيل بعض المسودات التي امكن الحصول عليها من شعر الشاعر ودراسة جانب من الجهد الواعي في التنقيح والصياغة، ولا شك ان هذا هو السبيل الصحيح للاطلاع على كيفية الايجاد الفني في القصيدة والمسرحية.

وقد ظل الكتاب ينحو هذا المنحى التطوري النامي في في شكل القصيدة وموضوعها من اوله الى نهايته (ومن ثم كان الفصل الثالث في المؤثرات التي تحكمت في القصيدة من حيث الشكل والموضوع واثرت فيها دفعاً او شداً) ولكننا في تتبع هذا التطور نفتقد ثلاثة امور هامة هي الترتيب التاريخي لقصائد الشاعر ومسرحياته ثم ما يترتب على هذا الترتيب من اثر للسن في شعره، ثم ان اتجاه شوقي الى الشعب والى العروبة درس منفصلا عن كل المؤثرات المعاصرة كتعاليم جمال الدين ويقظة القومية، والدعوة الى التغني بالمجد القديم والماضي المزدهر. ففي عمق هذه النواحي او سطحيتها وفي (الشعبية) القلقة المبهمة التي عاصرها شوقي، وفي الهزات المفتعلة التي اصيب بها جانب كبير من تقاليدنا يكمن ضعف شوقي وتردده واضطرابه ويصح فيه قول الدكتور ضيف: «انه لم يستطع ان يصل الى الغاية المرتقبة من التعبير عن هذا الشعب الحزين وما يجره او يحمله من اثقال غلاظ، وقد يكون في ذلك ما يغض من عبقرية شوقي ولكنها الحقيقة، فقد عاش غالباً على السطح من حياة هذا الشعب، فتعلق فيه بوطنياته وتعلق بازجاله ولكنه لم ينفذ الى سرائره وباطنه».

وعندي ان العيب ليس في شوقي وحده ولكنه في طبيعة ما نسميه (نهضة حديثة) مخادعين بذلك انفسنا، متفائلين على حساب حقائقنا الباهتة المستعبدة المتخاذلة. وليس كل شاعر يسبق زمنه ويعلو في الاحساس التنبؤي على معاصريه، وشوقي احد اولئك الذين يعيشون في ظل زمنهم ولا يتعدونه، وكثيراً ما يكون التفاتهم الى الماضي اقوى اثراً فيهم من كل ما يجيء به الحاضر او ينطوي عليه المستقبل.

كلية الخرطوم الجامعية - السودان احسان عباس

وفي الناس المسرة

لسعيد حورانية - مجموعة قصص - كتاب الرابطة رقم ٢ - سلسلة كتب شهرية تصدر عن رابطة الكتاب السوريين بدمشق
١٠٦ صفحات - دار القلم بيروت

بالرغم من وفرة الاقاصيص التي تنشر هذه الايام، فان الناقد المدرك لهذا الفن يلاقي الكثير من الاسف وخيبة الامل بعد اطلاعه عليها. ونظرة واحدة الى هذه الظاهرة تدلنا بتأكيد ان هذا الانتاج القصصي ما هو الا هوس له شبه كبير بالامراض الخبيثة. ذلك ان الادراك الفني لجل كتاب الاقصوصة عندنا يكاد ينعدم بصورة غريبة لاتصدق. وهذا لسوء الحظ حق، اذ ان كتابة الاقاصيص من اشق الفنون في العصر الحاضر ومن اشدها احتياجاً الى فهم عميق وادراك واسع لطبيعة هذا الفن وخباياه الكثيرة.

وقد ساورتني رغبة منذ زمن في نقد الاقاصيص التي تنشر والتي يحدث ان اطلع عليها، غير اني صدمت بأمر لم يخطر لي ببال، هو ان غالبية هذه الاقاصيص معدوم القيمة الفنية قطعاً وان من العبث والعقم ان يفيد كتابها من نقدي لهم. وعلى هذه الفكرة لبثت اطالع بيأس هادىء ما تنشره المجلات، حتى لفت نظري صديقي عبد الوهاب البياتي الى مجموعة قصصية صدرت حديثاً لسعيد حورانية تسمى (وفي الناس

المسرة) وطلب مني قراءتها وابداء رأي فيها . وانا اعرف الاستاذ حورانية ، فقد قرأت له قصصاً متناثرة في (الاديب الغراء ، اتذكر منها (الصندوق النحاسي) و(جنـــازتان) وكنت وقتئذ قد كتبت الى صديقي عبد الملك نوري رأيي في هذا القصاص . ولا استطيع بالطبع تذكر ما قلته آنذاك ، غير اني تناولت بشوق هذه المجموعة القصصية مؤملا في عالم فـني بديع يقدمه لي الاستاذ حورانية . ولم يخب رجائي كثيراً ، فقد شغلت بهذا الكتاب مدة غير قصيرة ، قرأته فيهـــا مرتين وحاولت ان انفذ الى الشخصية الفنية لكاتبه ، وهو برايي ما يجب على كل ناقد ان يفعله .

ليست كلمتي هذه موجهة لمن لم يطلع على كتـاب (وفي الناس المسرة) اذ اني لا اريد ان اقدمة او اعرفة للقراء ، بـل اني ، ببساطة ، اقصد مناقشة الاستاذ حورانية عما كتبه .

وقد لاحظت منذ القراءة الاولى ثغرتين واسعتين في ملكة المؤلف القصصية ادتا الى القضاء على جل اقاصيصه هاتان الثغرتان هما السكون واللغة .

الحركة او الفعل Action عنصر من عناصر احياء الاقصوصة وهي بدونه جثة هامدة ، عمل عابث عقيم . غير ان هذا العنصر الخطير يجب ان يفهم بشكل واسع مرهف . هو ليس اضطراب ابطال الاقصوصة فقط واختلافهم من محل الى آخر . نعم ، ان الحركة تبدو اول وهلة انها لا تعني غير هذا الامر الممكن حدوثه دائماً . وماذا يمكن ان يتحرك من الاقصوصة سوى ابطالها .

وهذا من السذاجة بمكان . ففي الاقصوصة ، وراء الابطال وحركتهم وخلف الارض الساكنة حركة خفية ، مجرى خفي يتوارى عن الانظار ويتلمسه الاحساس والفكر . يبدأ جريانه منذ الاسطر الاولى ويبقى صريره يرن في أذن القاريء لحظات بعد نهاية الاقصوصة .

ما حقيقة هذا السحر المبهم ؟ انه لا شيء غير الحيـــاة في الجسد . لا يمكن ان تعرفها في شيء معـين ملموس دون آخر ومظاهره في الاقصوصة من أدق الامور واخفاها عن العين . فقد يظهر في فكرة تساور البطل او حركة بسيطة منـه او شعور طفيف قد لا يتبين القاريء سببه او نتيجته بوضوح وفي كل الاحوال، هناك مجرى يمسكه المؤلف بيد حديدية حساسة ويوجهه التوجيه الطبيعي الذي يريده . وفي هذا الاستحواذ على حركة الاقصوصة منذ البداية حتى النهاية ، تتضح للناقد قدرة المؤلف وملكته الحقيقية .

فاذا عدنا الى الاستاذ حورانية وجدنا هذا العنصر ـ بمفهومه الفني ـ مفقوداً في اقاصيص المجموعة . هناك دفقات حركية في اقاصيصه . دفقات تنبثق ثم تضمحل بعـد فترة قصيرة وتترك القاريء الى مصير مجهول . فقد تحتويه دفقة اخرى وقد يلبث في مكانه دون حراك .

ففي اقصوصة « الطفل يصرخ في الظلام » حيرة في الحركة وتوقف شنيع في سيرها . ليس فيها ذلك المجرى العميق الذي يلف الابطال والاماكن والزمان . بل لقد انتهيت اخيراً الى ان « محتوياتها » لا يمكن ان تصلح لتكون اقصوصة بالمعنى الفني وقـد يتضح قولي كثيراً في اقصوصة اخرى مـن المجموعة ؛ « الخيط المشدود » وهي اقصوصة ساكنة مثل لوحة تصويرية .

اما في باقي الاقاصيص فالحركة تختلف باختلاف «المحتويات» فقد نجد مجرى ضئيلا لكنه مستمر تقريباً في « ساعي البريد » وقد نسير بارتياح مع ماضي امينة في «وغاب القمر» ، ولكن المسحة العامة ، وهي مسحة قوية مؤثرة ، كانت سكونية .

وهذه الثغرة في شخصية الاستاذ حورانيـة القصصية ، مع الثغرة الاخرى اللغوية التي ساتحدث عنها الآن، هي التي احالت عالم « وفي الناس المسرة » الى عالم جامد فقد الحياة .

اما اللغة، ودورها خطير في الاقصوصة،فقد كانت أضيق الثغرتين في عمل الاستاذ حورانية . ويحق لنـا ان نتساءل : ما هي اللغة الاقصوصية ؟ وهل يوجد حقاً مثل هذا الأمر المستقل؟

ليس هنـــاك لغة خاصة بالاقصوصة تمنع استعمالات لغوية معينة وتبيح صياغة مفردات غيرها . فاللغة في الاقصوصة وسيلة لهدف موجود دائماً . وهذا الهدف هو الذي يخط سير اللغة . ذلك ان بنيـان الاقصوصة مكون من صور تتلاحق بترتيب دقيق يقدره المؤلف . وهذا التلاحق، سرعته او بطؤه، يدخل ضمن بحث الحركة . لكن الصورة الواحدة، وهي الجزء الثابت من الحركة القصصية ، هي التي تؤلف وترسم بواسطة اللغـة . ومن أهم خصائص هذه الصورة كونها واضحة مشرقة الاركان قدر ما يقتضي وهذا ما يتطلب قطعاً لغة شفافة ؛ لغة كالزجاج كالماء الرقراق . ولذلك فلا مبالغـة في قولي ان الكلمات يجب ان تختفي من الأقصوصة . لا يجب ان تسترعي انتباه القاريء كلمة معينة ذات شخصية مستقلة . فالكلمات احجار يجب ان تتساوى في قيمتها . غير ان هناك ناحية غامضة في هذا الموضوع ما هي نوعية

هذه الكلمات القصصية ؟ على اي مقياس يمكن ان نختارها ؟

وجواب هذين السؤالين واحد يجب ان توضع الكلمات – الكلمات بدون تحديد – بحيث تتفاعل فيما بينها وتدمج لتضيء فتكون الصورة . اما اختيار هذه الكلمات، واما وضعها مع بعضها بحيث تتفاعل وتنتج الشرارة المطلوبة ؛ فهذه اشياء ادعها ، بالضرورة ، الى ملكات المؤلف الشخصية .

ولو رجعنا الى الاستاذ حورانية ومجموعته، لوجدنا استعمال اللغة عنده غامض الهدف بعض الشيء . هناك محاولة لديه في سبيل « نزعة بلاغية » . لعله يشعر بوجوب تقوية لغته من هذه الناحية ؛ ولعله يريد ان يرضي بعض لغويي العربية ؛ ولكني احذره باخلاص ان هذا الفن الذي يعالجه أشق واقدس من ان يحاول ترضية اللغويين او غيرهم . واستعمال اللغة لو خرج عن الهدف الاساسي لهذا الفن، لتشوه كل شيء في لحظة واحدة.

الا ان هذه « النزعة البلاغية » التي تهمها الجمل بمفردها ، ضعيفة عنده، ولغة الاستاذ حورانية فيها شفافية ، لكنها ليست الشفافية المطلوبة . لأن التفاعل بين الكلمات غالباً ما ينعدم وينتهي الامر بأرباك القاريء ، او على الاكثر عدم اثارة اية صورة في ذهنه . وهذا الامر واضح في جل اقاصيصه، مما اسبغ عليها ثوباً من الغموض العام غير المتقصد من قبل المؤلف .

وبعد هاتين الملاحظتين عن الحركة واللغة احب ان اوضح الأثر العام الذي تحدثه هذه المجموعة في نفس القاريء .

في القرن التاسع عشر، كان « موباسان » يكتب اقاصيص تجد فيها من يروي لك من ابطالها ، او تجد نفس المؤلف « يروي » لك كيف حصل له او لابطاله كذا وكذا من الامور . وفي كل الاحوال فالقاريء ينصت الى كلام احد الاشخاص ويتمتع بهذا الانصات . لانه متفرج ، خارج عن العالم الذي يعيش فيه ابطال القصة او يموتون .

اما الاقاصيص المعاصرة فتطمح الى غاية اخرى . ان المؤلف لا يريد ان يجعل قارئه يتفرج على اشخاص الاقصوصة. انه يريد منه ان ينزل الى ارض الاقصوصة ، بل هو يجبره على النزول « ليضعه » مع ابطال الاقصوصة جنباً الى جنب . « ووضع » القاريء مع الاشخاص القصصية من اخطر الثورات في عالم القصة. وهي ثورة سادت الآن وحكمت العالم المذكور، فصارت هدفاً جديداً تقرب اليه من المؤلفين اخصبهم موهبة واكثرهم جرأة . وهذا الهدف مفقود لدى الاستاذ حورانية. وقد عملت الثغرتان اللتان ذكرتهما آنفاً الكثير لتبعد بالقاريء عن اشخاص الاقاصيص. فهو قلق يلتقطه قسم من الاقصوصة ثم ترميه الاقسام الاخرى. بعيداً ، وغالباً ما يخرج من الاقصوصة وهو متفرج. وهذه نتيجة يجب ان يحاول الاستاذ حورانية غيرها

وبعد كل هذا تبقى للمجموعة قيم اخرى او بالاحرى تبقى للمؤلف وملكته ناحية اخرى تبشر بخير . فرسمه للشخصيات بلمسات بارعة وواضحة واختياره لبعض مواضيع اقاصيصه – بالرغم من طابع السرعة الظاهر في تقديمها – بقي في ذهني ذا اثر قوي.

غير اني آخذ عليه ، وهو التقدمي الملتزم بأدبه ، ضحالة المشاكل التي قدمها وضعفها من الناحية الانسانية . ما قيمة « اوسمة الشيطان » ومشاعر بطلها واشتهائه لاخت صديقه ؟ وما هو المعنى الانساني الذي نستخلصه من ان بطلة « ساعي البريد » ما هي الا عاهرة تتصيد الرجال ؟

وآخذ عليه انه شوه المعنى العميق في اقصوصة « وفي الناس المسرة » وقدمها في قالب رث ركيك . اما المحاولة التي تناسب فيها التقديم مع عمق الموضوع فكانت في « الساقان السوداوان » وفي « اخي رفيق » وقد مستا وتراً غائراً من نفسي.

واخيراً فأني آمل الكثير من الاستاذ حورانية ، يقوي املي فيه شبابه وثقافته – كما اخبرني صديق – وهما طاقة فعالة لها القول الفصل على الدوام .

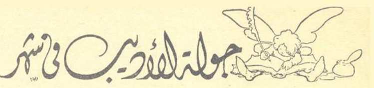
بغداد — **فؤاد التكرلي**



لما كان مجال هذا الباب « ظهر حديثا » لا يسمح لنا بان نعرف بجميع الكتب التي تردنا في خلال الشهر ، مما ادى الى تأخير الكتابة عن العديد من المؤلفات ، فقد رأينا الاكتفاء - موقتا - بالاشارة السريعة الى صدور هذه الكتب حتى لا تضيع الفائدة على القراء الذين يرغبون في الاطلاع على احدث ما اخرجته المطبعة العربية . مع العلم بان ذلك لن يحول دون نشر ما يردنا من نقد وتعريف بها في باب « مكتبة الاداب »

***

- نفسية ابي نواس - للدكتور محمد النويهي استاذ كرسي الآداب العربية ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الخرطوم الجامعية ٢٢٣ صفحة - منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة
- اللسان الحديث - تعديل القواعد العربية - الجزء الرابع للصفين الرابع والثالث - ليوسف سعادة - ٣٥٠ صفحة منشورات الحكمة بيروت
- وعي المستقبل - لقدري حافظ طوقان - ٨٨ صفحة منشورات دار العلم للملايين بيروت
- العالم العربي مقالات وبحوث - الكتاب الثاني - ١٩٦ صفحة - قطع كبير - منشورات الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية - مطبعة مصر بالقاهرة
- في السرير ، قصة واقعية - الطبعة الثانية - لمحمد العدناني ١٨٤ صفحة - مطبعة سعد بحلب
- خواطر خواطر ، من وحي سوداني على لسان لبناني لناظمها اسبر عيد - ٢٢٧ صفحة - مطابع نقد الله بواد مدني السودان
- منادمة الحروب ، ادب وحرب وسياسة - الجزء الاول لأحمد رمزي سفير مصر السابق بروما - ٣٤٠ صفحة - قطع كبير منشورات مكتبة النهضة المصرية القاهرة
- البرنامج الاساسي - منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة وبرنامجها - ٥٢ صفحة - منشورات اليونسكو - مطبعة مصر بالقاهرة
- المغرب في حلى المغرب - الجزء الاول - حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف - الجزء العاشر من سلسلة ذخائر العرب ٤٦٧ صفحة - قطع كبير - منشورات دار المعارف بمصر
- البحرين وايران - لمجيد خدوري - ترجمة صوت البحرين ٦٤ صفحة - منشورات « صوت البحرين » - مطابع دار الكشاف بيروت
- ابن حامد او سقوط غرناطة - لفقيد الشعر فوزي المعلوف ١١٧ صفحة - قطع كبير - منشورات مجلة العصبة الاندلسية دار الطباعة والنشر العربية - سان بولو البرازيل
- مستقبل المرأة العربية في البيت والمجتمع - لمنير الشريف ١٨٣ صفحة - قطع كبير - منشورات دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر - المطبعة العمومية بدمشق
- العيد القومي الاول ، مصر في عام (٢٣ يوليو ١٩٥٢ - ٢٣ يوليو ١٩٥٣) - ٣٢ صفحة - هيئة التحرير المصرية بالبلاد العربية ، المركز العام بدمشق - مطبعة دار الكتب بيروت
- المأمور العجوز وقصص اخرى - لادمون صبري رزوق مع مقدمة للدكتور صلاح الدين الناهي - ٨٣ صفحة - مطبعة دار المعرفة ببغداد
- على هامش الجزء الخامس من كتاب العراق بين احتلالين للاستاذ العزاوي - للحاج وداي آل عطية - ٢٤ صفحة - المطبعة الحيدرية بالنجف العراق
- في سبيل الاصلاح - للدكتور محيي الدين السفرجلاني ٢٣٠ صفحة - المطبعة العصرية بدمشق
- الشيطان الاحمر - لفيكتور شامبر - ١٥٦ صفحة - قطع صغير - الجزء السابع من سلسلة كتاب الشهر - دار مجلة الدنيا بدمشق
- في بلاد العميان - بقلم هـ. ج. ويلز - ١٥٦ صفحة - قطع صغير - الجزء الثامن من سلسلة كتاب الشهر - دار مجلة الدنيا بدمشق
- الامير خالد بن يزيد - لسعيد الديوه جي - ٤٢ صفحة قطع كبير - المطبعة الهاشمية بدمشق
- المحاضرات العامة للسنة الجامعية ١٩٥١-١٩٥٢ - الجامعة السورية - ١٤٤ صفحة باللغة العربية و ٧٤ صفحة باللغة الفرنسية - قطع كبير - مطبعة الجامعة السورية بدمشق
- جوائز « المغرب » و «مرويكوس» للاداب - مع مقدمة لضون لويس كريجال اريطا نائب التربية والثقافة - ٤١ صفحة باللغة العربية و ٢٧ صفحة باللغة الاسبانية - منشورات معهد مولاي الحسن بتطوان المغرب



بمناسبة ذكرى ١٢٥ سنة لولادة تولستوي

ذكريات عن ليون تولستوي

بقلم البروفسور ن. ن. غوسيف

✡

لقد مرت علي في حياتي سنتان لن انساهما : هما السنتان اللتان اشتغلت فيهما مع الكاتب الكبير ليون تولستوي . شاهدت تولستوي لاول مرة منذ خمسين سنة ، في اكتوبر عام ١٩٠٣ . وكنت ، اثنـــاء دراستي ، طوال سنتين لمؤلفات هذا الكاتب قد تملكني تقدير عظيم لهذه النفس الجميلة ، واحسست برغبة جامحة في رؤية هـذا الرجل العظيم . فكتبت اليه رسالة اطلب فيها السماح لي بالقدوم لرؤيته فنلت موافقته .

ودام حديثي الاول مع تولستوي زهاء ساعة . وقد اعطى اجوبة مسهبة على كل اسئلتي ، وتركت تولستوي ، وقد اخذت بمجامـع قلبي حرية فكره القوية ، وصفاؤه الحكيم . ثم مرت اربع سنوات ، عدت خلالها اكثر من مرة الى ياسنايا بوليانا * وتراسلت مع تولستوي .

وفي صيف عام ١٩٠٧ ، عرض علي المرحوم فلاديمـــير غريغوريفتش تشيرتكوف وهو احد اصدقاء تولستوي الحميمين ان اقوم بمهمة سكرتير تولستوي في اعماله الادبية ومراسلاته . ولست بحاجة الى ان اقول اني قبلت بحماسة . وقد تمكنت ، طوال سنتين ؛ من ان ارى الرجل العظيم في حياته اليومية وعمله كان عمره يومذاك ٧٩ سنة . ولهذا فان العمل اليدوي الذي كان يحبه كثيراً — الفلاحة ، والحصاد ، كما تبين ذلك في لوحات «ريبين» المدهشة ، والسير الطويل على الاقدام من موسكو الى ياسنايا بوليانا (٢٠٠ كيلومتر) قد اصبح من الماضي البعيد .

كان تولستوي يستيقظ حوالى الساعة الثامنة صباحاً ، ويقوم بنزهة قصيرة في حديقة ياسنايا بوليانا . وكان يتنزه عادة ، لوحده متأملا شيئاً ما.

ولدى عودته من النزهة ، كان يلج الى مكتبه ويقرأ اثناء الفطور ، الجرائد والرسائل . وكان فطوره بسيطا جدا : فنجانا من القهوة السوداء وبسكويت او قطعة صغيرة من الخبز عليها بيضة . وكان تولستوي ينتقي من بين الجرائد واحدة ويطلع على الاخبار المهمة عن الاحـداث الرئيسية في روسيا والخارج .

وكان يقرأ الرسائل بنفسه دائما ، ويكتب على غلاف كل منها ملاحظات من انواع ثلاثة : « جواب » (وكان ذلك يعني انه سيتكفل بان يجيب بنفسه على الرسالة) ، او «ن .ن يجيب» (وكنت الذي يتكفل بالاجابة عن مثل هذه الرسالة) اما اذ كانت الرسائل غير ذات بال وغير جدية ، فيكتب : « د.ج (دون جواب) .

كان محتوى الرسائل التي يتلقاها تولستوي ، متنوعاً جداً ، فقد كان الناس يكتبون اليه من مختلف انحاء روسيا والبلدان الاخرى سائلين اياه حل المسائل المختلفـــة : الفلسفية والدينية والاجتماعية والسياسية ، والادبية والفنية وغيرهـا ، كما كانوا يسألونه كذلك حل مشاكل حياتهم الخاصة ومشاكل الاخلاق ولم يكن يمتنع عن الاجابة على اية رسالة جدية نوعا ما . وكانت بعض اجوبة تولستوي ، لا تضم الا بضعة اسطر ، وبعضها الاخر اذا كان متعلقاً بالمسائل التي تشغله بصورة خاصة ، يصبح عبارة عن مقالات كاملة ، تظهر اثر ذلك في الصحف .

وبعد الانتهاء من الرد على الرسائل ، كان تولستوي ينصرف الى عمله الرئيسي . وكان يشعر بالحاجة الى سكون شامل ، فكان يغلق كل الابواب المفضية من مكتبه الى الغرف الاخرى . وما كان على احد ان يدخل الى غرفته في هذه الساعات الصباحية من عمله المنفرد : لا الاصدقاء ، ولا افراد العائلة ولا امناء السر

وكانت الطريقة التي اعتادها تولستوي في عمله ، سواء اكان ذلك يتعلق بالمؤلفات الادبية ام المقالات ، هي كما يلي : كان تولستوي يتمعن طويلا في نفسه في المشروع الجديد ، ولم يكن ليبدأ العمل الا عندما تكون فكرة المؤلف المقبل الكاملة قد باتت واضحة تماما . وكان يعد احيانا مسودة ملخصة لكل

* ياسنايا بوليانا حيث ولد تولستوي (في ٩ سبتمبر ١٨٢٨) وعاش وابدع وتعد ياسنايا بوليانا اليوم من اهم المتاحف التذكارية

المؤلف ،من اوله الى آخره.فكنا نعيد نسخ ما كتبه ،ونضعه على طاولة عمله . وكان تولستوي يبدأ بعد ذلك بالتصليح والاكمال ،وهكذا كان حجم المسودة يزداد ضعفين او ثلاثة اضعاف. وكانت المسودة الجديدة تنسخ مجدداً ، خمس او عشر مرات او اكثر . ولكن كان تولستوي يردد دائما ان «الذهب لا ينال الا بعد الغسل والتصفية الشديدين» وان الامر كذلك في العمل الأدبي .

وقد ذكر تولستوي مرة كلمات «بوفون» القائلة : العبقرية هي الصبر،واضاف من عنده:

ـ ان هذا هو عين الصواب، اذ يجب ان لا ندع شيئاً الا بعد ان نضع فيه كل ما في وسعنا ان نضع.

وهذا العمل الدائب الذي يقوم به تولستوي كان يدوم اربعة او خمسة ايام، واحيانا ستة . وكان ذلك يتعلق بحالة صحته وفي هذا كان تولستوي لا يعرف ايام الراحة .

وبعد ان ينتهي تولستوي من عمله ،كان يذهب لتناول الفطور في غرفة الطعام. كان طعامه نباتيا فقط : فلم يكن يأكل اللحم ولا الاسماك . وغالبا ما كان الزوار ينتظرون تولستوي اثناء تناوله الفطور زوار يأتون من مختلف اطراف البلاد ليبحثوا معه المسائل التي كانت تشغلهم وليتلقوا منه المساعدة المعنوية .

وبعد الانتهاء من مناقشة الزوار ، كان تولستوي يقوم بنزهة ثانية ، اطول هذه المرة ، على الاقدام او على الحصان . وكان يذهب عادة الى الغابات المجاورة ، وينتقي لرحلاته الطرق العذراء او غير المطروقة . وكان يتنزه وحيداً ، ليس معه رفيق الا دفتراً كان يحمله في نزهاته ابداً، حتى اذا ما خطرت له صورة فنية موفقة او فكرة عميقة ، جلس على ارومة شجرة ، وسجلها واذا ما كان على صهوة الجواد ، كان يمسك اللجام والدفتر بيسراه والقلم بيمناه ، ويكتب دون ان يوقف الحصان . فاذا ما عاد تولستوي حوالي الخامسة بعد الظهر خلع ثيابه ، وقد انهكه التعب ، ونام ساعة او ساعة ونصف .

وكان طعام العشاء يقدم في ياسنايا بوليانا في الساعة السادسة او بعد السادسة بقليل . وكان تولستوي يأتي دائماً متأخراً قليلا ، بعد أن يكون الجمع قد اكل الصحن الاول . وكان الحديث مسلياً دائماً اثناء العشاء ، فقد كان تولستوي يقص غالباً انطباعاته عن الرحلة او يبدي رأيه في هذه المسألة او تلك. وكنت اجهد بكل ما اوتيت من قوة كي احفظ كلماته على ادق وجه لاسجلها ولم يكن ذلك امراً سهلا. فقد كانت لغة تولستوي مبتكرة جداً . ولم تكن ذات طابع ادبي او صحافي، ولكنها لم تكن على كل حال اللغة التي يتكلمها عادة. وقد كان تولستوي يجهد للتعبير عن افكاره بصورة موجزة، بقوة ودقة .

ولم يكن تولستوي يجهد في عمله مساء كما يفعل في الصباح . لقد كان يمضي امسياته على اوجه مختلفة جداً . وكانت الايام التي تخلو من الزوار في ياسنانا بوليانا ، نادرة جداً .

تولستوي في ياسنايا بوليانا عام ١٩٠٩

لم يغادر تولستوي تقريباً في سنواته الاخيرة ، ياسنايا بوليانا ولكن حياته لم تكن على كل حال حياة وحدة وانطواء وانقطاع عن العالم . فقد كان يهتم اهتماماً شديداً بكل الحوادث الرئيسية للحياة في روسيا والخارج ، ويردد صداها في مقالاته ورسائله .

لا نستطيع القول ان تولستوي كان يفضل دائماً الاحاديث « الراقية » . ـ بل لقد كان يجول عن طيب خاطر في مواضيع

الحياة العادية جداً . ومن معظم صور ورسوم تولستوي ،يطل عليك وجه صارم ، قاتم احياناً ، ولكن روح تولستوي العادية كانت روحاً حية مرحة . لقد كان يحب المزاح ، والضحك ، كان يحب الحكايات المرحة وكان يضحك وهو ينصت اليها ، ضحكاً متواتراً ينم عن عواطفه .

لقد كان تولستوي يقرأ كثيراً عند المساء . وكانت الاشياء التي تهمه من الناحية الفكرية متنوعة جداً . وتضم مكتبة ياسنايا بوليانا ، التي لم تحفظ كاملة ، زهاء ٢٢٥٠٠ مجلد في مختلف مواضيع الادب والمعرفة بـ١٤ لغة . ويجب ان لا ننسى ان الكثير من كتب هذه المكتبة قد ضاع . وتولستوي لم يكن مولعاً بحفظ الكتب ، ولم يكن بخيلا بكتبه .

وكان تولستوي يلتذ بان يقرأ بصوت عال المؤلفات التي تعجبه بصورة خاصة . وكان يعرف معرفة تامة الاداب الكلاسيكية الروسية والاجنبية ، ويتذكر بسهولة مختلف المقاطع من مؤلفات بوشكين ، ولرمونتوف ، وجوجول ، وهيرزن ، وتورجينيف ، واوستروفسكي ، وتشيخوف . وكان تولستوي يؤثر ديكنز على سواه من المؤلفين الانكليز وكان روسو وفكتور هوجو مؤلفيه المفضلين بين الفرنسيين ، وشيللر بين الالمان .

لقد كانت المحادثات طليقة دائماً في ياسنايا بوليانا ، ولم يكن باستطاعة تولستوي تحمل الاحاديث المتكلفة المصطنعة المغرضة ، ولا يفرض نفسه ابداً ، كمعلم ، او اخلاقي قاس . كان دائماً يعبر عن آرائه بوضوح وبساطة ، ولا يتردد في الاعراب عن عدم اتفاقه مع محدثه ، ولو كان ذلك ، احياناً ، بلهجة قاسية . وفي الوقت نفسه كان يدافع بحماسة الرجل المقتنع تماماً ، عما كان يعتبره حقيقة ، وكان يفعل ذلك دون ان يخشى افساد علاقاته مع الناس ، ودون ان يتردد في قول ما يكون على نقيض المعتقدات المتداولة حول هذه او تلك من المسائل .

وفي بعض الليالي ، كانت الموسيقى تصدح في ياسنايا بوليانا فقد كان يأتي من موسكو عازفو بيانو وكمنجة بارزون . وكان للموسيقى تأثير كبير على تولستوي . فحينما كان ينصت ، كان وجهه يشحب ويكسب تعبيراً خاصاً . وكان يقول « ان الموسيقي تدوخني » . وكان يفضل الموسيقى القوية ، الصافية ذات النغم الواضح المحدد . وكان موزار وشوبان ملحنيه المفضلين ولكنه كان يتأثر دائماً بالصرامة المؤثرة لوحي لودفينغ بتهوفن ، مع ان موسيقى بتهوفن لا تستجيب كلياً لمفاهيم تولستوي في الفن .

وفي المساء ، كان تولستوي يلعب احياناً الشطرنج ، ولكنه كان يفعل ذلك دونما اجهاد فكري ، وانما لكي يريح دماغه الذي لا يكف عن العمل ، ولهذا كان يخسر دائماً مع رفاقه . كان كل امرىء ، عادة ، يذهب الى غرفته حوالي الحادية عشرة ، واحياناً نادرة بعد ذلك . وكان تولستوي يستأذن من كل واحد ويمد يده لكل شخص غريب حضر الى البيت . وقد كانت طريقته في الشد على اليد فريدة حقاً : كان يبقي في يده يد الشخص الذي يستأذنه ، ملقياً عليه ، وجهاً لوجه ، نظرة انتباه وعطف .

لقد كانت نهاية عملي مع تولستوي نهاية عنيفة . فقد كان الكثيرون من مراسلي تولستوي يطلبون منه ان يرسل لهم مؤلفاته ، خصوصا تلك التي كانت ممنوعة في روسيا القيصرية . وكانت هذه المؤلفات عديدة ، فقد كانت كل مقالات تولستوي العنيفة ، الموجهة ضد الحكم المطلق ، وضد الاقطاعية ، وضد كل نظام روسيا القيصرية الاجتماعي ، كانت كل هذه المقالات ممنوعة وكان نشرها يستتبع الملاحقة من الحكومة . وقد كنت طوال مدة سنتي اقامتي في ياسنايا بوليانا ، عاكفا على نشر وتوزيع مقالات تولستوي هذه . وقد ادى ذلك الى نفيي في ٤ اغسطس ١٩٠٩ لمدة سنتين ، بناء على قرار وزير الداخلية في حكومة بيرم . ولقد تأثر تولستوي وغضب جدا لنفيي . وكتب آنذاك مقالا ساخطا : «بيان حول توقيف غوسييف» ، نشرته الصحف الروسية بعد ان مر على المراقبة هنا وهناك . وهكذا ، لم استطع ، مع الاسف ، ان اكون مع تولستوي اثناء السنة الاخيرة من حياته ، واحضر ايامه الاخيرة .

ن . ن . غوسييف

– بقية المنشور في صفحة ٤ –

بل عن سماحة ، كالشعر التمثيلي ، وقد يمجد – كما يجد فعلا لريادته الممتازة في فنون الادب ، ولكن تبقى الصفة الاهم لمطران والنعت الاكرم ، فان شاعر الحرية الفنان الملهم اولى الشعراء الاحرار في العالم العربي جميعه باسمى التقدير من دوله وشعوبه دون اي تحفظ – وليس التقدير الصحيح الا بنشر جميع آثاره وتعميم درسها وتشرب مبادئها الانسانية السامية التي تنظر الى الانسان الرفيع وللفن الرفيع نظرة واحدة .

نيويورك **احمد زكي ابو شادي**

مطالعات في أدب الغرب

☆

توفي مؤخراً كاتب انكليزي معروف هو «ف.ل.جرين» في مدينة بريستول ، بعد ان ناهز الواحدة والخمسين من عمره ، وجرين هذا روائي اشتهر بقصته Odd Man Out التي اخرجها «الكسندر كوردا» الى السينما. وقد عرض هذا الفيلم في اوروبا بعنوان « ثماني ساعات من التأجيل »

والجدير بالذكر هنا ان جرين المتوفي هذا هو غير «جراهام جرين»صاحب كتاب «القوة والنصر» رغم تشابه اسميهما ووحدة جنسيتهما وعملها . لان «ف.ل.جرين» كان لا يحب غالبا بان يلقب بمؤلف Odd Man Out او يخلط بينه وبين « جراهام . جرين » ولم يكن ذلك ناتجا عن استصغاره لشأن كتاب اجمع النقاد والجمهور على اعتباره كتابا خالداً ،ولا عن احتقارلسمعة الكاتب المشهور . انما يجب الاعتقاد بان موقف جرين هذا هو ظاهرة من ظواهر تعطشه الشديد للحرية التي كانت موضوعه الاساسي ، او النقطة الرئيسية التي دارت حولها جميع آثاره .

وهنا يصح التساؤل : عما اذا كان ذلك يعتبر من مميزات طبيعة الشعوب السلتية ، التي تحدر الكاتب منها . وهي طبيعة غير مروضة ، شديدة المراس . ولد جرين في انكلترا من اب ارلندي وام ترجع باصلها الى الهيجونت «جماعة من الارلنديين الكاثوليك» ومع ذلك فان ف . ل . جرين لم يخرج عن كونه انكليزيا ! وكان هذا الرجل القصير ذو الوجه الرقيق المتحرك بعينيه النافذتين العميقتين وبمرحه البارز وبسرعة خاطره الدائمة وبتأثره بألوف الانعكاسات ،وبشعوره المرهف ، يكره كثيرا الاقفاص الذهبية التي يسمونها الشهرة الادبية .

ومن الصعب فهم ف . ل . جرين الا بقراءة كتابه A Flask For The Journey الذي نشره عام ١٩٤٦،وهي رواية تاريخيةتعد من اهم آثاره بعد روايته Odd Man Out التي تختلف كثيراًعنها. وهما قصتان ترويان من زوايا مختلفة ،حكايات متوازية لرجل كان اسير حرب في المانيا ، ثم يكتشف حريته في ثروة من عالمه الداخلي ، ولرجل آخر كان ، من الناحية الجسمية والاجتماعية والاخلاقية حر ، ولكنه يرفض هذه الحرية الممنوحة له ويفضل عليها عبودية مميتة لحب دون امل .

ان الساعات القليلة التي يمضيها المرء مع ف . ل . جرين تجعله يضع يده على مدى الخصوبة العجيبة لعالمه الداخلي . ويجد في الوقت نفسه ان كل كلمة يسمعها من هنا ، او كل وجه يقابله من هناك ، يوقظان في نفسه شرحاً مسهباً من الاساطير حتى يبدو للقارئ، انه وقع تحت سيطرة ابطاله (الكلمة هنا هي من وضعه) يردد حركاتهم ، ويقلد اصواتهم ، ثم يخلق عالماً كاملا متحركاً ملوناً في بضع دقائق . على انه حين يباشر عمله القاسي في تصفية وترجمة حركات ابطاله ، يتحول من رجل خجول حي ، الى مقارع مروض يجعل ابطاله يخضعون لطاعة سيدهم .

اننا نفهم خوفه قبل كل شيء من ان يصبح سجين نفسه ، او رجل كتاب واحد ، ولاجل الاحتفاظ بهذه الحرية كان يضحي في بعض الاحيان ليس بالنجاح والشعبية اللذين يطمح اليهما كل كاتب ، بل بالرفاه الفكري الذي ينتج عن اي فوز بسيط ، ولقد كان باستطاعته ان يكتب عدة روايات مماثلة لـ Odd Man Out، وان يستخلص منها الافلام المختلفة ، ولكنه فضل ان يناضل ولسنا نعرف ابداً ماذا كانت نتيجة هذا النضال ، بيد انه عند ساعة وفاته كان ما يزال منتصراً ولاشك .

ولم يكن سهلا على جرين ، بعد ان تخلص من عبودية نفسه ان يصبح اسير صبغة ادبية خاصة، وهذا ولا ريب ما كان يبعد شقة المقارنة بينه وبين سميه جراهام جرين ، وهنا يلمس القارئ بوضوح خيانة الاسماء المتشابهة احياناً...ولا غرو فان اي ناقد يستطيع ان يصف ف.ل. جرين كما يلي: روائي كاثوليكي عاش مشاكل عصره ووضع كتباً ذات حيوية سريعة عاصفة احياناً ولكنها تعبر عن قلق صوفي عميق وكانت له مؤلفات تشوق القارئ، ولكنها تدع مجالا واسعاً للتفكير . ومن شخصيات ابطاله المفضلة يعتبر « الرجل الاسير » في الطليعة . هذا بينما نجد جراهام جرين صاحب سيناريو « الرجل الثالث » على العكس منه ، متزمتاً ، متمسكاً بالتقاليد ... لا يشبه ابداً سميه المحب للحياة ، المتحرر المتفائل .

ولا بد من الاعتراف بان للتاريخ الادبي متطلباته ، اذ سيأتي يوم تتحدث فيه كتب الدراسات الادبية عن هذا الثالوث الادبي الكاثوليكي الذي عاش في القرن العشرين في انكلترا ، والمؤلف من ف. ل. جرين ، وافلين ووج ، وجراهام جرين

المولودين على التوالي في سنوات ١٩٠٢ ، و١٩٠٣ ، و١٩٠٥ ، والذين بلغوا القمة بين زملائهم ، اذ نجد لدى جراهام جرين التشاؤم والقلق ، والظلال الاخلاقية الموجودة عند موورياك ، بينما نجد لدى ووج المرح القاسي اللاذع ، والوضوح البارد ، اما ف. ل. جرين فهو الوحيد من نوعه ، انه رجل مجاهد .

لقد كان اول مجاهد في حروب ارلندا ، البلد الذي كان أحبه كثيراً ، والذي من اجله استنفد قريحته ، واخيراً لا نجد غضاضة في تلقيبه بمؤلف Odd Man Out الكتاب الذي جعل منه الروائي الاول من نوعه .

ومن المعتقد انه على مرور الزمن ، سيظهر هذا الكاتب القوة الحقيقية للموجة « السلتية » المشابهة للكاثوليكية الجديدة ، والتي غيرت منذ ما يزيد عن ستين عاماً ظواهر الادب الانكليزي المعاصر ، تغييراً عميقاً .

والى ان يحين هذا الزمن ، فان قراءة آثار ف. ل. جرين تجعل منها دائماً وكأنها جديدة الطابع ، مثيرة الاحداث ولم يكن مؤلفها يخشى ان يكون شعبياً ، بل على العكس ، كما انه لم يكن يخشى ان يكون « التزامياً » .

فقد نفح في عالم ادبي يريد ان يقضي على ترفع المثقفين الكبار ، نسمة من الشجاعة والحكمة ، والواقعية المرحة مع الحب .

***

حين قرأت رواية الياس كانتيني ، الكاتب النمساوي المعروف المترجمة الى الفرنسية بعنوان « برج بابل » بينما عنوانها الاصلي بالالمانية هو « الاغشاء » Die Blandung عجبت أن يكون خارج البلاد الالمانية كاتب قدير لم تتح له الدعاوة الكافية في الاوساط الادبية العالمية ، ففي فرنسا لم يكن كانتيني معروفاً بالمرة ، وفي المانيا نفسها كان كتابه هذا من بين الكتب الممنوعة ، ليس من اجل افكاره السياسية ، كما قد يؤول عنه ، بل من اجل لهجة الكتاب نفسها ، وبسبب هذا الطابع الذي اتسم به المؤلف وهو طابع « السمو واقعية » ، المتأثر ببعض مخلفات الكاتب التشيكي اليهودي كفكا ... وقد يبدو من الغرابة ان تصدر هذه الرواية لكانتيني عام ١٩٣٦ ، فلا يصار الى ترجمتها الى الفرنسية الا عام ١٩٤٩ ، اي بعد مرور ١٣ عاماً على صدورها . بينما تغيرت خلال هذه المدة اتجاهات الرأي العام ، وباتت تميل الى افكار جريئة اخرى .

هذا كتاب شاذ كل الشذوذ ، وهو للوهلة الاولى قد يصدم القاريء ويبلبل ذهنه ، ولكن سطوته وغرابته قد تحملان اخيراً على الاذعان والرضى ... لأن ما يحتويه من جو جهنمي لا بد ان يعجب بعض الاوساط المولعة بالقساوة والفظاظة والبطش ... اما من حيث المغزى الذي يستخلص منه ، فهو رقيق للغاية ومتلون بحيث يستطيع كل قاريء ان يفسره على طريقته . وان «مدينة الكتب» التي عاش فيها المفلس « كيان » – بطل رواية برج بابل – ليست ابداً البرج العاجي كما نفهمه نحن او كما جرى فيه توفيق الحكيم ، اي العزلة الممتعة ... اذ اصبح « كيان » مصدر ألم وعذاب شديدين لجميع الاشخاص الذين تربطهم به علاقات ما ، فهو ضحية الكتب ، مفعم بضوضاء جميع اللغات التي تتصايح في هذا « البرج البابلي » الجديد .

والواقع ان ابطال هذا الكتاب الحقيقيين هم الكتب فقط وهي مكتبة الاستاذ كيان التي يعبدها عبادة تجعل منه رجلا انسانياً فذاً ، تواقاً الى الخدمة المتناهية ، شأنه في ذلك شأن مكتبته ، ولكن هذه تعامل معاملة سيئة من قبل بعض الاشخاص ؛ وتعار محتوياتها مقابل رهن الى بعض المستعيرين ، واخيراً تأتي لحظة تنتهي فيها هذه المكتبة بان تحرق في يوم يصيح فيه « الديك الاحمر » ...

ولا اريد هنا ان اعلق على الطرق العديدة التي فسر بها الكاتب مغامرات « كيان » . المرفوس بالارجل من جميع الناس الذين يحيطون به ، من بوابه ، ومن خادمته التي لم يجسر على الزواج منها ، ومن بطل الشطرنج الشاب « فيشرل » الذي كان يستغل ترحيبه به ، فيحتال عليه كل مساء في غرفته بالفندق شتى الحيل والاحابيل الخ ... انما يهمني هنا ان اشير الى التسلسل المشوق الاخاذ الذي يملك الكاتب فيه على قرائه تفكيرهم وحواسهم ، والى غرابة كثير من الاحداث غير المألوفة التي يجعلها الكاتب سهلة ممتعة مقبولة في كثير من الاحيان .

***

مما يروى عن مارسيل بروست القصاص الفرنسي المشهور انه تاق ذات يوم الى قراءة دراسة شاملة عن آثاره في احدى المجلات الأدبية المعروفة ، فقال لنفسه بعد تفكير ان خير طريقة في ان يكتب عنه دون تجريح هو ان يتولى بنفسه كتابة هذه الدراسة عن نفسه . ولما فرغ منها اعطاها الى احد اصدقائه الشبان ليوقعها باسمه ، وليحملها الى المجلة التي اشار عليه بها . غير ان مدير المجلة المذكورة بعد ان اطلع على المقال اعاده الى الصديق الشاب مرفوقاً بهذه الكلمة :

برقيات ادبية

● تأجل مؤتمر وزراء المعارف للدول العربية الذي كان من المقرر عقده في القاهرة في الشهر الماضي الى شهر نوفمبر القادم . ومدة المؤتمر اربعة ايام ويتضمن جدول الاعمال المسائل الاتية :

توحيد عدد سني الدراسة في مراحل التعليم . تنفيذ قرارات المؤتمرين الثقافيين الذي عقد اولهما بلبنان سنة ١٩٤٧ وعقد ثانيهما بالاسكندرية سنة ١٩٥٠ وكذلك تنفيذ نصوص المعاهدة الثقافية . تبادل الاساتذة والمدرسين . توحيد سياسة المشرفين الدائمين للدول العربية في اليونسكو . وضع نظام موحد لتعادل الشهادات . تكوين لجان قومية ثقافية في البلاد العربية . انتداب خبراء من البلاد العربية للادارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

هذا هو جدول الاعمال ، وكل ما نرجوه ان تنفذ القرارات التي سوف يتخذها المؤتمر فلا تبقى حبرا على ورق كقرارات المؤتمرين الثقافيين والمعاهدة الثقافية .

● تعقد في مدريد من اول الجاري حلقة دراسية نظمها معهد الدراسات السياسية بها . وقد دعيت الدول العربية لحضور هذه الحلقة التي تتناول بالبحث النواحي الثقافية والاقتصادية والتاريخية والسياسية في العالم العربي . وقد انتدبت مصر الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد المصري في مدريد لتمثيل مصر ، وسيلقي بحثا عن « مصر في الوقت الحاضر » .

● وافق المؤتمر الطبي الدولي الذي عقد في لاهاي والذي حضره ٤٠٠٠ طبيب يمثلون ٧٠٠ الف في ٤٦ دولة ، على قرار يؤكدون فيه ضرورة ابعاد التقاليد الطبية عن التطورات السياسية .

● في مكتبة المتحف البريطاني بلندن خمسة ملايين كتاب تنتظمها رفوف يبلغ مجموع اطوالها ستين ميلا . وما من كتاب طبع في انجلترا الا وتجد له نسخة في هذه المكتبة المنقطعة النظير . ومنذ عشرين سنة يقوم ثمانية من العلماء بانشاء فهارس لهذا العدد الضخم من الكتب ولكنهم لم يفرغوا حتى اليوم الا من فهرست الحروف الثلاثة الاولى من الابجدية الانجليزية وشطر من الحرف الرابع ومعنى هذا ان هذه المهمة لو مضت على هذه الوتيرة فلن تتم فهرسة سائر الابجدية الا في العام ٢٠٣٦ ولكن في العام المذكور تكون الفهارس الاولى قد تقادم عهدها وصارت متخلفة عن عصرها بنحو قرن . فيجب اذ ذاك ان يعهد الى فريق آخر من العلماء بالبدء من حيث انتهى اسلافهم ليستدركوا الجديد الذي فاتهم وهكذا ستظل تلك المهمة كالحلقة المفرغة .

● عقد الاتحاد العالمي للمشتغلين بالعلوم مؤتمرا في بودابست في منتصف الشهر الماضي وقد ترأس المؤتمر العالم الذري فريدريك جوليو كوري رئيس الاتحاد .

● ستمثل على مسرح الكوميدي فرانسيز بباريس في ١٥ الشهر الحالي مسرحية فرنسية عربية اسمها « عطف الباشا » وهي رواية مقتبسة عن قطعة للكاتب الاسباني مرفانتس بقلم جبرييل اوديسيو ، وسيقوم بتمثيلها اعضاء المركز الاقليمي للفنون المسرحية بالجزائر .

● اكتشفت احدى اللوحات غير المعروفة للفنان الاسباني الكبير ديجويا في مزاد علني دولي اقيم في فينا بالنمسا في الشهر الماضي ، وقد رسا المزاد على شخص مجهول بمبلغ ٢٥ الف شلن نمساوي ، واللوحة تمثل ولدا صغيرا ، وقد اكتشفت اللوحة صدفة عندما احضرتها سيدة منذ شهرين الى احد الخبراء لتنظيفها فلاحظ انها موقعة باسم الفنان فرنشسكو جوزيه دي جويا ، المتوفي سنة ١٨٢٨ وقد قدر الخبراء ثمن هذه الصورة بمبلغ ٧٥ الف شلن ولكن المعروف ان سعر الصور في فينا اقل من اي بلد آخر . وقد بيع ايضاً في هذا المزاد منظر طبيعي للفنان الهولاندي الكبير رويسدال بمبلغ ٩٠ الف شلن ، وصورة للفنان الفرنسي بوردون بمبلغ ٤٥ الف شلن .

● افتتح في وشنطن بدار متحف فرير للفنون معرض « يصور الفن الاسلامي في الف عام » وقد عرضت فيه نقوش ومخطوطات واواني فخارية وزجاجية ومعدنية ومجوهرات تمثل الاحقاب المختلفة منذ القرن السابع عشر حتى اليوم . واكبر مجموعة في هذا المعرض هي المجموعة المعدنية وهي تضم معروضات مختلفة من العقود الذهبية الدقيقة الى الشمعدانات وفي المعرض واجهة تضم اشغال المصيص ومن بينها نماذج ترجع الى العهد الفاطمي في مصر . اما مجموعة الصور الفارسية فتضم صورا للمصور الفارسي المشهور بهزاد ، وهي من اهم ما اشتمل عليه المعرض ، ومن المعروضات ايضاً تحفة زجاجية تدل على ان سوريا كانت مركزا عظيما من مراكز اشغال الزجاج . ويضم المعرض كذلك صورا من قصور المغول في دلهي . والتحف المعروضة في هذا المعرض تنتمي الى منطقة تمتد من البحر الابيض المتوسط حتى الهند ، وتمثل جوانب هامة من الثقافات والفنون .

● اعلنت مجلة كارفور الفرنسية في باريس عن مسابقة بين الادباء موضوعها «معنى الحرية» ولم تقيد المتسابقين باي شرط في استطاعتهم ان يتقدموا بقصص او بمسرحيات او بابحاث ورصدت لذلك عشرين جائزة الاولى منها رحلة الى مراكش لمدة اسبوعين على نفقة المجلة والثانية والثالثة جهاز تليفزيون والرابعة والخامسة زورق بخاري . ويراس لجنة التحكيم الفيلسوف الوجودي جبريل مارسيل .

● اعلن الاديب الامريكي وليام فولكنر الحائز على جائزة نوبل للادب ، انه سيفرغ بعد اربعة شهور من وضع حوار لفيلم سينمائي عن الحياة في سواحل امريكا الجنوبية . وذكر ان موضوع هذه القصة يلح على رأسه منذ اكثر من عشر سنوات .

● سافر الدكتور حسين مؤنس الاستاذ المساعد بجامعة القاهرة الى مدريد لتولي ادارة المعهد المصري للدراسات الاسلامية هناك والاشراف على طلبة البعثة المصرية الملحقة به وعددهم عشرة يدرسون المسائل التي تتصل بالصلات الحضارية بين مصر والعالم الاسلامي والعربي من جهة وبين الاندلس القديمة واسبانيا المعاصرة من جهة اخرى سواء في النواحي التاريخية او الاثرية او التي تتصل بالفلسفة والفكر الاسلامي . والمعهد المصري ل...ات

« المقال يحتاج الى كثير من التعمق ، وهو لم يتناول بحث النواحي الاساسية من الموضوع ، ولا شك بان مارسيل بروست سيكون شديد النقمة ، حين يرى دراسة سطحية منشورة عنه بهذا الشكل ... ولذلك احب ان اعيد اليك المقال بكل اسف » ...

باريس — اديب مروة



٢٩ اغسطس ١٩٥٣ – عقد جوزيف بيلا رئيس الحكومة الايطالية اجتماعا مستعجلا مع وزير الدفاع ورئيس هيئة اركان الحرب للنظر في ما نشر عن عزم يوغوسلافيا على ضم المنطقة « ب » من تريستا الى اراضيها .

٣١ – قدم السيد جميل المدفعي رئيس الحكومة العراقية استقالة وزارته .

اول سبتمبر ١٩٥٣ – دعت الدول الغربية الثلاث الاتحاد السوفياتي لعقد اجتماع لوزراء خارجية الدول الاربع الكبرى بسويسرا في ١٥ الشهر القادم لبحث المسألة الالمانية وغيرها من المسائل الهامة .

٢ – رفض مجلس الامن الدولي طلب الكتلة الاسيوية الافريقية بادراج قضية مراكش في جدول الاعمال . وقد صوتت ضد الطلب فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا وكولومبيا والدنيمرك اما الدول التي صوتت معه فهي لبنان والباكستان وتشيلي والصين الوطنية والاتحاد السوفياتي وامتنعت اليونان عن التصويت . وكان الطلب يحتاج الى سبعة اصوات مؤيدة .

٤ – قدمت الحكومة اليوجوسلافية احتجاجا رابعا الى الحكومة الايطالية على التدابير العسكرية المتخذة على الحدود الايطالية اليوجوسلافية وجاء في المذكرة انه اذا لم تسحب ايطاليا قواتها فورا فان يوجوسلافيا ستقوم بعمل مماثل من جهتها .

– عدل السير ونستون تشرشل رئيس الحكومة البريطانية وزارته .

٥ – اعلن ان الرئيس ايزنهاور منح ايران قرضاً جديدا بقيمة ٤٥ مليون دولار بالاضافة الى الملايين الثلاثة والعشرين التي خصصتها الولايات المتحدة لايران منذ ايام على سبيل المساعدة الفنية .

٧ – القي القبض على مدير البوليس الوطني في كوريا الجنوبية مع عدة اشخاص آخرين لمحاولتهم تدبير مؤامرة لقلب الحكومة والاتصال بحكومة كوريا الشمالية فور الاستيلاء على مقاليد الامور .

– اذيعت نتائج الانتخابات النيابية في المانيا الغربية ففاز الحزب المسيحي الديمقراطي بالاغلبية المطلقة وهو حزب الرئيس كونراد اديناور .

٩ – اعلنت السلطات الايرانية نبأ القاء القبض على الدكتور نادر ثامي رئيس حزب توده

١٠ – تدور في وشنطن مباحثات هامة بين المستر دالاس وزير خارجية امريكا والمستر كاسي وزير خارجية استراليا والمستر ويب وزير خارجية نيوزيلندا وتتناول المحدثات قضية الدفاع عن الشرقين الادنى والاوسط .

١١ – صدر في رباط بلاغاً اعلن فيه ان سلطان مراكش الجديد محمد بن عرفة قد نجا من محاولة جرت لاغتياله وان الذي قام بالمحاولة قد قتل .

١٣ – اصدر شاه ايران امراً بمحاكمة الدكتور مصدق امام محكمة عسكرية .

١٤ – رفضت الولايات المتحدة الاقتراح الصيني الشيوعي الداعي الى اشتراك الهند والاتحاد السوفياتي والباكستان وبرمانيا واندونيسيا بالمؤتمر السياسي الكوري باعتبارها دولا محايدة وتصر امريكا على ان من حق الدول التي قاتلت جيوشها تحت راية الامم المتحدة فقط الاشتراك في المؤتمر .

١٥ – اعلن اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية المصرية اكتشاف وثيقة خطيرة تثبت تامر بعض رجال السياسة في العهد البائد ضد العهد الحاضر واتصالهم باحدى الدول الاجنبية واعلن الصاغ صلاح سالم وزير الارشاد القومي باسم مجلس الثورة تشكيل محكمة ثورية لتنظر فوراً فيما يقدم اليها من قضايا المتهمين .

– غادرت اول فرقة المدفعية الذرية الولايات المتحدة قاصدة الى اوروبا .

– انتخبت الجمعية العامة للامم المتحدة السيدة فيجايا لاكشمي باندبت مندوبة الهند رئيسة للدورة الثامنة للجمعية .

١٦ – قدمت سوريا مذكرات الى الدول التي اصدرت البيان الثلاثي حول امن الشرق الاوسط « فرنسا وبريطانيا وامريكا » تحتج فيها بشدة على مشروع اسرائيل الرامي الى تحويل نهر الاردن عن مجراه الحالي .

١٧ – الف الدكتور فاضل الجمالي رئيس مجلس النواب العراقي الوزارة العراقية الجديدة .

– يقوم كبار القادة العسكريين البريطانيين واليونانيين والاتراك بمراقبة الجيش اليوجوسلافي وهو يجري تجربة كبرى لقوته الدفاعية في المناورات السنوية وهي اكبر ما قامت به القوات اليوجوسلافية حتى الان . وقد عقد اجتماع بين الماريشال مونتجومري الذي كان يرافقه الجنرال فانسبروج وبين الماريشال تيتو رئيس جمهورية يوجوسلافية .

٢٠ – اذيع ان الماريشال بريا وزير الداخلية السوفياتية السابق قد لجأ الى بلد محايد مع ثلاثة من معاونيه ، ولم تتأكد هذه الاشاعة .

– اعلن البيت الابيض ان السيد جلال بايار رئيس الجمهورية التركية سيزور الولايات المتحدة في مطلع العام القادم .

– اذاعت الحكومة العربية السعودية بياناً عن اعتداءات بريطانية جديدة مسلحة في واحة البريمي

– خطب مالنكوف رئيس حكومة الاتحاد السوفياتي فقال ان الاتفاقية التي عقدتها امريكا اخيراً مع كوريا الجنوبية ليست الا مشروعاً للاستمرار في استخدام امريكا لكوريا الجنوبية كمقفز عسكري الى آسيا .

٢١ – اعتقلت الحكومة المصرية عده شخصيات سياسية بينها السيد مصطفى النحاس الرئيس السابق لحزب الوفد وقرينته السيدة زينب الوكيل والدكتور حافظ عفيفي الرئيس السابق للديوان الملكي وهؤلاء الثلاثة فرضت عليهم الاقامة الجبرية بينما نقل الباقون الى السجن وبينهم السيد ابراهيم عبد الهادي الرئيس السابق للحزب السعدي والسيد حامد جودة رئيس مجلس النواب السابق وسيحال الجميع الى محكمة الثورة للمحاكمة .

٢٢ – اعلن السيد محمد ظفرالله خان وزير خارجية الباكستان لدى وصوله الى كراتشي من نيويورك ان الاتفاق المصري البريطاني حول قاعدة قنال السويس سيتم قريبا .

٢٣ – افتتح في روما مؤتمر معاوني وزراء الخارجية الستة للاسرة الاوروبية والغاية من المؤتمر وضع مشروع الاسرة السياسية الاوروبية .

مطابع الرهبنة الشويرية – بيروت
تلفون : ٤١ – ٤٦